جماليات المكان في شعر انتفاضة الأقصى	د. حماد حسن أبو شاويش د. ثابت محمد قنيطة جامعة الأقصى/ غزة

Abstract

The Beauty of Location in Alaqsa Uprising Poetry

This paper is an attempt to study the beauty of location design in Alaqsa Uprising poetry. It also deals with location design which is prominent in poetry. The present paper the various types of location which the poets highlight i.e. the major types are embodied in town, village and refugee camp, the minor types include house, mosque, street and prison. The study presents positive and negative denotations and indications of each type.

The paper also attempts to analyze the beauty dimensions and phases of location in Alaqsa Uprising Poetry in the lights of three dimensions: social, psychological and spiritual.

This paper, in addition, deals with the major characteristics of location image i.e. image reality, time and location intertwining, diversification of location and location humanization. It also reveals the poets' attitude towards location in the lights of their interaction and belonging to this location and their ability to apply it in literary works.

ملخص البحث

يحاول البحث أن يدرس جماليات المكان في شعر انتفاضة الأقصى ويتعامل مع الظاهرة المكانية التي كان لها حضورها في الشعر، ويقدم تعريفاً لمفهوم المكان لغة واصطلاحاً، ويكشف عن صور المكان المتعددة التي ركز عليها الشعراء وهي: الصور الرئيسة ممثلة في المدينة والقرية والمخيم، والصور الفرعية وتشمل البيت والمسجد والشارع والسجن مبيناً الدلالات الإيجابية والسلبية لكل منها، كما حاول البحث أن يحلل أبعاد جماليات المكان في شعر الانتفاضة وذلك ضمن أبعاد ثلاثة: البعد الاجتماعي والبعد النفسي والبعد الروحي، كما تناول أبرز خصائص الصورة الشعرية المكانية، وهي: واقعية الصورة، تشابك المكان والزمان، التلوين (التنويع) المكاني، أنسنة المكان، وكشف عن نظرة الشعراء للمكان في ضوء انتمائهم وتفاعلهم معه وقدرتهم على توظيفه في العمل الأدبي.

مقدمة :

تعد انتفاضة الأقصى من أنبل الظواهر التي شهدتها الأرض العربية كصورة من صور المقاومة والكفاح من أجل التحرر والاستقلال، وقد كان لهذه الظاهرة آثارها الواسعة في الحياة والأدب والفكر، وإذا كانت الانتفاضة قد ارتبطت بالمكان أكثر من أي شيء آخر، فإن ذلك أمر طبيعي ومتوقع، لأنها خرجت منه ونشأت في مدنه وقراه وفي شوارعه وحاراته وأزقة مخيماته وعلى امتداد سهوله وجباله. ونظراً لأهمية المكان برز له حضور فاعل في شعر الانتفاضة لكونه أصبح هوية تاريخية ووطنية ونفسية.

ولا شك أن شعراء الانتفاضة أولوا المكان اهتماماً بالغاً، فالمكان ذو أهمية قصوى في بنية الشعر وتشكيله الفني، ولا نظن أن هذا الحضور البارز للمكان، وهذا الاهتمام به جاء مصادفة ودون دلالات جمالية ووجدانية وتلقي هذه الدراسة نظرة حول الانتفاضة كواقع وعوامل ومؤثرات، وتحدد مفهوم المكان لغة واصطلاحاً، وتتناول صور المكان وهي قسمان: الأمكنة الرئيسة وتشمل المدينة والقرية والمخيم، والأمكنة الفرعية وتتمثل في البيت والمسجد والساحة والشارع والسجن، موضحة من خلال الإحصاء والتحليل- الدلالات الإيجابية والسلبية لكل منها، وهي دلالات تعكس الارتباط الوثيق بين المكان والإنسان.

وقد أكدت الدراسة أن المكان لم يكن مجرد محتوى جغرافي بل كان ذا علائق واسعة مع الإنسان والزمان ويحمل دلالات عميقة وأبعاد متنوعة اجتماعية ونفسية وروحية.

لقد سعى شعراء الانتفاضة إلى تقديم رؤية خاصة لواقعهم، رؤية تكتسب خصوصيتها من قدرتهم على إدراك الواقع بعلاقاته المتعددة والمتشابكة، وتحاول هذه الدراسة أن تكشف عما أضفاه هؤلاء الشعراء على صورهم المكانية من سمات، كان لها أثرها في إبداعهم، ولعل أهم هذه السمات التي تكشف عنها الدراسة: واقعية الصورة الشعرية المكانية، تشابكات المكان والزمان، التلوين أي التنويع المكاني، أنسنة المكان.

وتعد صور المكان وأبعاده المختلفة وسمات صوره الفنية من أهم ركائز هذه الدراسة وهي لذلك تستحق الدراسة والتحليل.

تمهيد

انتفاضة الأقصى: واقع وعوامل ومؤثرات

انتفاضة الأقصى صورة من صور المقاومة ومظهر من مظاهر كفاح الشعب الفلسطيني في مواجهة العدوان الإسرائيلي، وقد انطلقت لأسباب متعددة يوم الثامن والعشرين من سبتمبر عام ٢٠٠٠م، وكان أبرز أسباب تفجر انتفاضة الأقصى قيام رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون باستباحة حرمة المسجد الأقصى الشريف، وعلى إثر ذلك عمت مختلف المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية في فلسطين المحتلة ثورة شعبية تواصلت وتصاعدت نحو مرحلة نوعية من المواجهة، واجهتها قوات الاحتلال بعنف أكبر وقسوة وتدمير شديدين، والحق أن الانتفاضة لم تشتعل بمعزل عن المسار العام لكفاح الشعب الفلسطيني على مدى عشرات السنين، فهي امتداد طبيعي لهبات وانتفاضات وثورات متلاحقة تصاعدت حجماً وتأثيراً على نحو أشد من غيرها.

إن طبيعة العلاقة بين الفلسطينيين والاحتلال الإسرائيلي، تقوم على العداء المطلق الذي يرتكز على التنافر والصراع، وعدم الالتقاء، والقاعدة التي تحكم هذا الصراع تستند إلى مسألتين: الأرض والهوية، الاحتلال يرمي إلى تهويد الأرض وطمس هوية شعبها، وأصحاب الأرض الشرعيون يسعون إلى استعادة أرضهم، والتمسك بهويتهم القومية[1] .

لقد جاء اشتعال انتفاضة الأقصى في غمرة ممارسات إسرائيلية، تتسم بالتعسف والظلم والعدوان على جميع الصعد، فقد تفاقمت ممارسات الاحتلال الإسرائيلي المخططة والمنظمة الهادفة إلى تهويد الأرض الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، ولم تدخر وسيلة من وسائل الضغط المادي والنفسي إلا واستخدمتها مع الفلسطينيين لإجبارهم على الرضوخ والإذعان للإرادة الصهيونية. ولم يتوقف العدوان حتى في أوج التسوية، وظهر أن التسوية كانت ولا زالت وهماً يخفي خلفه وجه القوي الذي يفرض الاستسلام ولا يعطي الحق لأصحابه.

ومن الممارسات الإسرائيلية التي أسهمت في تفجر انتفاضة الأقصى تنكر إسرائيل لالتزاماتها التي تحكمها اتفاقية أوسلو مع السلطة الفلسطينية، فهي لم تلتزم بما جاء في تلك الاتفاقية، فبعد مرور خمسة أعوام على إبرام اتفاقية أوسلو لم تنسحب القوات الإسرائيلية إلا من مناطق محدودة من الضفة والقطاع واستمر الصلف الصهيوني المدعوم أميركياً بكل أسباب البقاء والقوة مما أصاب الشعب الفلسطيني بحالة من الإحباط الشديد والشعور بخيبة الأمل نتيجة لفشل الجهود السياسية والحلول السلمية ومشروعات التسوية غير الجادة التي لم توفر للإنسان كرامته وحريته واسترجاع حقوقه، يضاف إلى ذلك أن الاحتلال زاد من مصادرة الأراضي والاستيطان، وذلك غير مستغرب على الكيان الصهيوني، إذ ظل موضوع الاستيطان على رأس المهمات المركزية لحكومات إسرائيل المتعاقبة على السلطة، ليس على صعيد البرامج الحزبية الانتخابية وحسب، وإنما على صعيد الخطط والموازنات الحكومية "وقد شكل الاستيطان الإسرائيلي الذي هو السمة الأساسية للاحتلال الصهيوني لفلسطين، منطلقاً مركزياً في العمل الصهيوني، إذ تم اعتماده سبيلاً لتجسيد المشروع الصهيوني برمته، فالصهيونية حركة عنصرية استعمارية، نادت بحلول انعزالية لما أسمته المشكلة اليهودية، لأنها عارضت اندماج اليهود في أوطانهم الأصلية، ودفعتهم للهجرة إلى فلسطين زاعمة أن لهم فيها حقوقاً تاريخية وسياسية ودينية[٢].

وقد استطاع الاحتلال الإسرائيلي خلال فترة احتلاله للضفة الغربية وقطاع غزة منذ عام ١٩٦٧م وحتى الآن، أن يخلق سلسلة من الوقائع المفروضة من خلال الاستيلاء بالقوة على الأرض واستيطانها ليصبح ذلك أمراً واقعاً، ويظهر ذلك واضحاً في الخريطة الاستيطانية كما فصلها ميرون بنفينستي والتي أوضحت جانباً مهماً عن النشاط الاستيطاني قبل مرحلة

أوسلو، ويظهر من خلالها سيطرة الاحتلال على نحو ٥٢% من مجموع أراضي الضفة الغربية وعلى نحو ١١% من مساحة قطاع غزة حيث بلغ عدد المستعمرات الاستيطانية نحو ١٥٠ في الضفة يقيم فيها نحو ٢٠٠ ألف مستوطن، ونحو ١٧مستعمرة في القطاع يسكنها نحو ٢٥٠٠ مستوطن(٣).

وتفيد الإحصائيات بأن الاستيطان بعد اتفاقية أوسلو قد زاد بنسب كبيرة، إذ بلغت في العام ٢٠٠٣ ــ ٢٠٠٤ مساحة المستوطنات من أجمالي مساحة قطاع غزة نحو ٣٠,٧%، وبلغ عدد المستوطنين ٧٥٩٥ أما في الضفة الغربية فأصبح عدد المستوطنات ١٥٥ مستوطنة وزادت مساحتها إذ بلغت نحو ١٤٢ مليون متر مربع بنهاية العام ٢٠٠٢، كما يقدر عدد المستوطنين في الضفة بنحو ٤٢٥ ألف مستوطن(٤).

وقد بلغ الإحباط أشده لدى الفلسطينيين نتيجة المعاناة اليومية للشعب الفلسطيني في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، حيث تقوم سلطات الاحتلال بالتحكم في المعابر وتعتقل أو تمنع من تشاء من الانتقال أو الخروج وفق قوانين صارمة، كما سلكت إسرائيل سياسة عدوانية ضد المقدسات بأنواعها، واعتدت على مشاعر المسلمين والمسيحيين بدءاً من محاولات الحفر تحت الأماكن المقدسة بغرض تدميرها ومروراً بمحاولات الحرق وانتهاءً بتدمير أماكن العبادة، وصولاً إلى منع المصلين من الصلاة بالمسجد الأقصى أحياناً، أو إطلاق النار عليهم واستفزاز مشاعرهم أحياناً أخرى، دون مراعاة لحرمة الدين والأخلاق الإنسانية والأعراف الدولية(٥)، وهناك عامل مهم وهو ما يتعرض له العمال الفلسطينيون من إذلال وإهانة على المعابر وفي أثناء العمل، وما يواجهه هؤلاء من مخاطر جسيمة تعرض حياتهم للخطر.

ومما زاد الانتفاضة استمراراً في الاشتعال الممارسات الصهيونية التي تتمثل في البطش والقتل والتدمير لكل شيء، فلم يسلم منها شجر أو حجر أو بيت أو إنسان، طفلاً كان أو امرأة أو شيخاً، فقد تحولت دولة الاحتلال من استخدام المدافع والدبابات إلى المقاتلات الأميركية الصنع من طراز إف ١٦، كما احتلت القوات الإسرائيلية فعلياً جميع مدن الضفة الغربية وحاصرت الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في مقره(٦).

وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدها الشعب الفلسطيني في سنوات انتفاضة الأقصى على مختلف المستويات المادية والبشرية فإن

خسائر كبيرة وقعت في الجانب الإسرائيلي، فقد خسرت إسرائيل ما يزيد على ألف قتيل، كما تعرض اقتصادها لنكسات كبيرة وانحسرت حركة الهجرة إلى الكيان الصهيوني وانكشف الوجه الحقيقي للصهاينة أمام الرأي العام الدولي الذي رأى في ممارسات إسرائيل صورة من صور العنصرية والإجرام.

لقد أثرت انتفاضة الأقصى على مختلف مظاهر الحياة في المجتمع الفلسطيني تأثيراً عميقاً على مختلف الصعد، فعلى الصعيد السياسي استطاعت الانتفاضة أن تستمر وتتواصل باعتبارها مقاومة من أجل الحرية والكرامة والسيادة الوطنية، وقد زادت شعبنا تصميماً على نيل حقوقه، فالنكبات والظروف الصعبة والخسائر الكبيرة لا تصادر وعي الشعوب بحقوقها ولا تعني أنها علامة هزيمة، بل أصبحت قادرة على تحفيزنا نحو مزيد من الصبر والتحمل والمقاومة، وقد نجحت انتفاضة الأقصى في تحقيق قدر كبير من الوحدة الوطنية الميدانية من خلال الإجماع على التمسك بالثوابت الوطنية وعلى تبني خط النضال والمقاومة، "لقد رسخت الانتفاضة حقيقة النضال الفلسطيني، وأهدافه فهي ليست أهدافاً آنية، ولا مطامع ومطالب شخصية، وإنما هي أهداف وطنية شاملة راسخة: إزالة الاحتلال ورفض سياساته في التوطين والاستيطان، وسلب الأراضي والطرد والإبعاد، والتمييز العنصري، وحماية المقدسات، ثم تحقيق الهدف الأسمى وهو حق تقرير المصير، وإقامة الدولة المستقلة[٧] :

أما على الصعيد الثقافي، فقد ازداد الأدب المقاوم عمقاً وانتشاراً، إذ فجرت الانتفاضة أحاسيس الشعراء والكتّاب، فصدرت القصائد الكثيرة وانتشرت الأمسيات الشعرية والقصصية والندوات الأدبية وصدر أكثر من ديوان شعري باسم انتفاضة الأقصى، وأدركت المؤسسات التعليمية (مدارس وجامعات) أهداف العدو الرامية إلى تجهيل الشعب وحرمانه من التعليم، وذلك من خلال إجراءاته الدائمة في إغلاق الطرق وعزل المناطق ومنع الطلبة من الوصول إلى المدارس والجامعات، فحاولت بكل جهودها استمرار العملية التعليمية.

وعلى الصعيد الاجتماعي نما التكاتف أمام المحن والشدائد التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني، وأصبح الناس يهبون لمساعدة اخوتهم الذين تتعرض مزارعهم وبيوتهم للتدمير، وعلى الرغم من الظروف القاسية التي

يعيشها الفلسطينيون فإن هناك إصراراً على عدم توقف الحياة اليومية، فلم تتوقف مظاهر الحياة من عمل، وصحة وتعليم وخدمات.

لقد تميزت انتفاضة الأقصى بمشاركة شعبية واسعة النطاق من قبل جميع شرائح المجتمع المختلفة من عمال وفلاحين وطلبة ومهنيين وأطفال ونساء بمختلف مستوياتهم وأعمارهم، وتحملت كل هذه الشرائح تضحيات كبيرة فداء للوطن وعزته وكرامته.

مفهوم المكان

المكان لغة واصطلاحاً:

المكان لغة: المكان: الموضع، والجمع أمكنة، كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع[٨]. والمكان: المنزلة، يقال هو رفيع المكان[٩].

المكان اصطلاحاً: اختلفت الآراء حول مفهوم المكان اختلافاً بيناً، فهناك من ينظر إليه على أنه "وسط غير محدود يشتمل على الأشياء[١٠] والمكان عند جاستون باشلار هو ما "عيش فيه لا بشكل وضعي، بل بكل ما للخيال من تحيز، وهو بشكل خاص، في الغالب مركز اجتذاب دائم، وذلك لأنه يركز الوجود في حدود تحميه[١١].

وترى اعتدال عثمان أن المكان "لا يقتصر على كونه أبعاداً هندسية وحجوماً، ولكنه فضلاً عن ذلك نظام من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني أو الجهد الذهني المجرد[١٢]:

ويعرف كل من ستوكولز وشوماخر المكان باعتباره السياق الجغرافي والمعياري للسلوك، فهو يشير إلى حيز ما يحيط بالإنسان ويطلق عليه اسماً[١٣].

ويرى عز الدين إسماعيل أن "حقيقة المكان النفسية تقول، إن الصفات الموضوعية للمكان ليست إلا وسيلة أو وسائل قياسية تسهل التعامل بين الناس في حياتهم اليومية[١٤] .

والمكان عند ياسين النصير هو"الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ولذا فشأنه شأن أي نتاج اجتماعي آخر يحمل جزءاً من أخلاقية وأفكار ووعي ساكنيه"[١٥] ، والمكان أيضاً عند

الناقد نفسه "ليس بناء خارجيا مرئيا، ولا حيزا محدد المساحة، ولا تركيبا من غرف وأسيجة ونوافذ، بل هو كيان من الفعل المغير والمحتوي على تاريخ ما، والمضمخة أبعاده بتواريخ الضوء والظلمة [١٦] .

ويميز عبد الملك مرتاض بين المكان الحقيقي والمكان الأدبي، فالمكان الأدبي" عالم دون حدود، وبحر دون ساحل، وليل دون صباح، ونهار دون مساء، إنه امتداد مستمر مفتوح على جميع المتجهات، وفي كل الآفاق"[١٧].

والشاعر المتمكن هو الذي يستطيع أن يتعامل مع المكان تعاملا بارعا فيوظفه توظيفا فنيا ناجحا بمختلف أبعاد المكان الاجتماعية والنفسية والجمالية.

صور المكان ودلالاته

حظى المكان باهتمام شعراء انتفاضة الأقصى، وتجلي ذلك لديهم بدرجات متفاوتة تتراوح من تضمين المكان في عناوين كثير من القصائد مثل: القدس في الأسر، عائد إلى جنين، حوار في ساحة الأقصى، درب النصر، أرض غزة، بوابة الرجاء جنين، وقفة على أعتاب مستوطنة، لن تمروا، المسجد الأقصى، رسالة من خلف الحدود "لا ترحلوا"، إلى الاهتمام بالمكان بأبعاده المختلفة.

وبالنظر في أشعار الانتفاضة يمكن ملاحظة تنوع الأمكنة، وقد استأثرت بعض الأمكنة باهتمام الشعراء أكثر من غيرها.

ويرتبط المكان بالإنسان (ماضيه وحاضره ومستقبله) على نحو وثيق، ولاشك أن هناك علاقة واضحة بين الاهتمام بالمكان في شعر انتفاضة الأقصى وبين وجود الاحتلال الإسرائيلي وممارساته، ذلك الاحتلال الذي ينهش الواقع، ويشوهه بصورة يوشك معها العالم أن ينفلت من بين يدي الشاعر بسرعة غير منطقية، وغير عادية تدفعه إلى التشبث بالمكان، وكأنه يستخدم الإبداع باعتباره محاولة ــ على المستوى النفسي الذاتي ــ لاسترداد المكان أو انتزاعه من قبضة التشتت والتدمير والضياع.

وقد تنوعت الأمكنة في شعر انتفاضة الأقصى، ومع ذلك يمكن حصرها في قسمين: الأمكنة الرئيسة، وتشمل المدينة، القرية، المخيم،.

والأمكنة الفرعية، وتشمل: البيت، المسجد، الساحة، الطريق، الدرب، الرصيف، السجن.

أولا: الأمكنة الرئيسة:

المدينة:

فرض موضوع المدينة نفسه على الشعراء فتسلل إلى كثير من قصائدهم على مدار تجاربهم الشعرية، آخذا أبعادا مختلفة، وهذا ليس مستغربا لأن المدينة "إطار مكاني لما يجيش به المجتمع من الحركة والتشكل المستمر للقيم وأنماط الحياة، وليس هذا فقط. بل هي عمق للحركة والتشكل، وباعث لهذه الحركة ومحصلة لها في نفس الوقت"(١٨).

وقد تحكمت الظروف التي مر بها الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية من أحداث جسام ابتداء من نكبة ١٩٤٨ وحتى اليوم في رسم الشعراء لصورة المدينة، إذ غطى موقف شاعر الانتفاضة من المدينة مساحة بارزة في مجال رؤيته، وقد ارتبطت المدينة ــ في الغالب ــ بالعاطفة الوطنية والكفاح من أجل التحرر، كما ارتبطت بالواقع المرير الذي حل بتلك المدينة من تدمير وقتل وسفك دماء وطرد وحرمان منها.

وجاءت صورة المدينة متنوعة وفقا للأحوال والظروف التي مرت بها، وتبعا لنفسية الشاعر وموقفه منها، وبرزت صورتان للمدينة في شعر انتفاضة الأقصى وهما:

١- المدينة المغصوبة الحزينة الكابية:

تلح المدينة بصورتها الحزينة الكابية بفعل اغتصاب الصهاينة لها على خيال الشعراء، فيختلط نتيجة لذلك في العمل الشعري الخيال بالحس، والحلم بالواقع، ولكن يغلب على وصف الشعراء لهذه المدينة الجانب المأساوي الذي يعكس آثار الدمار والقتل والإذلال وتحكم القوي في الضعيف.

ومن أشهر المدن المغصوبة في فلسطين القدس، والقدس محنتها قديمة متجددة وجرحها لا يزال غائرا. تعاني مدينة القدس معاناة شديدة من الوجود الصهيوني في أرجائها، يعيثون فيها فسادا وإفسادا، وتخريبا وتدميرا، يضيقون على أهلها من أجل إجبارهم على الرحيل عنها، ويلجأون إلى وسائل خبيثة من أجل تحقيق ذلك الهدف، مثل فرض ضرائب عالية على السكان والتضييق عليهم في السكن، ومنعهم من البناء أو التوسع العمراني، وتشجيع

المستوطنين للاستيلاء على بيوت المواطنين ... وغير ذلك من وسائل التضييق.

وعن هذه المدينة المقدسة التي تتألم من الحال الذي آلت إليه يقول الشاعر "عبد الرحمن بارود" في قصيدة "القدس[١٩]:

القدس وجه طيبة ومكة المكرمة
ترسف في أصفادها بين القلاع المحكمة
حطت عليها القبعات السود والضفائر المزنمه
أغربة غريبة من كل صقع شرذمه
تغرز في أفراخنا أظفارها المسممه
وطار نوم القدس من عيونها المورمه
من وقع دباباتهم ووقع حفاراتهم.
ووقع جرافاتهم في دورها المهدمه

ويصورها الشاعر العشماوي في موضع آخر في صورة إمرأة أرملة قتل اليهود فارسها، وقتلوا البسمة على شفاهها والحياة في قلبها، وحولوا حياتها إلى جحيم، فيقول في قصيدة "القدس أرملة[٢٠] :

والقدس أرملة يلفعها الأسى ... وتميت بهجة قلبها الأحزان
شلال أمعها على دفقاته ... ثار البخار فغامت الأجفان
حسناء صبحها العدو بمدفع ... تهوي على طلقاته الأركان
أدمى محاجرها الرصاص ولم تزل ... شماء ضاق بصبرها العدوان
حسناء، داهمها الشتاء ودارها ... مهدومة، ورضيعها عريان

يصور الشاعر هذه المدينة المقدسة عروسا حسناء قتل اليهود عريسها، فأصبحت أرملة، وانقلبت حياتها رأسا على عقب، فتحولت حياتها إلى ذل وفقر ووحدة، فلم يعد لها زوج أو ابن أو جار يحفظ جوارها ويصونها، إضافة إلى ذل استبد بها الجوع، ولم تجد من يطعمها ويغيثها، لفقد القريب وإعراض البعيد، مما يزيد من معاناتها وألمها. وبرغم ذلك لم تفرط في كرامتها وشرفها وهما أغلى ما تمتلكه.

يبذل الصهاينة جهودا حثيثة لتهويد المدينة المقدسة، وتغيير معالمها، ويتعرض سكانها لصنوف التعذيب والقهر والإرهاب. عن هذه الجانب يتحدث الشاعر "أبو علي" في قصيدة "عذرا فلسطين"[٢١]:

لهفى على القدس كم جاس الظلوم بها ... وكم تقاسي صروف الدهر والنوبا

تعيث فيـــها اليـهود الغتـم مفسـدة وتزرع الشر والإرهاب والشـــغبا
كم أشعلوا نارهم فيها وكـــم هدمـوا من منزل وأهـــانوا والـدا حدبـا
وكم أسالوا دموع المؤمنات ضحـــى وكم ظلوم بغى أو غاصب غصبـا
وكم أداروا كؤوس المـــوت مترعـة فيتموا طفلـــة أو شـردوا عزبـا

إضافة إلى القدس، فقد ذكر الشعراء مدنا فلسطينية أخرى، ورســموا لها صورا تبين حالها وما آلت إليه من تخريب وتدمير واستباحة علـــى يـد الاحتلال الصهيوني الذي يخطط بخبث ومكر لتفريغ المكان الفلسطيني مـــن أهله، هذا المكان الذي كان للفلسطيني حياته وجنته وعشقه وحبـــه الـذي لا يفرط فيه ولا يساوم عليه.

وهكذا فإن الواقع المؤلم الذي تعيشه مدينة القدس تعاني منـــه مـدن أخرى، بعضها يسميها الشعراء باسمها وبعضها يذكرونه دون تسمية. فـــهذه جنين مسرح لجرائم بشعة ارتكبها جنود الاحتلال بحق أهلها، تكشـف عـن جانب منها قصيدة الشاعر سمير العمري ومنها قوله[٢٢]:

قف بالطلول وحدث أيـــها الجيـل واسأل جنين لتأتيك التفـاصيل
وجل بطرفك فـــي دار ألـم بـها من العـداوة تدمـير وتقتيـل
تظاهر الشر والخذلان فـــانتفضت تحكي الفداء صمودا فيه تأصيل
ألقوا القنابل والغازات من غضـب وجاوزوا حرما وانتابهم غـول
دكوا البيوت فما أبقوا على حجـر يقي الشيوخ ولم تبك القنـاديل
شاخ الأنين بصبر الأمهات علـى طفل أبيد وزوج غالـه الغيـل
ففي اللحود مئـات الأبريـاء معـا وفي القلوب من الأحزان ترتيل

كما يكشف عن جانب آخر من تلك الجرائم قول الشاعر[٢٣]:

ماذا دهـاك مساجدي ومنـازلي وملاعبي مالي كـأني أحلـم؟
أترى أصابك فـي الظـلام زلازل فجميع ما في الذكريات مـهدم؟
أنظر تحقق واسـتمع ذا صـارخ أناتـه تحـت الركـام تلعثـم
ذا يسـتغيث ولا مغيـث يغيثـه ذي طفلـة أشـلاؤها تتكـوم
ماء يسـيل مـن الأزقـة أحمـر صبغت مساربه الجماجم والـدم

ويظهر من الأبيات السابقة أن الصهاينة أحالوا جنين إلـى مقـبرة تعـج بالأبرياء من أبناء الشعب الفلسطيني، وتناسوا كل القيم الإنسانية والأخلاقيـة والدينية، لقد أطاح الأعداء في جنين وقبلها في القدس وفي مدن أخرى بكـل ما هو جميل ومشرق، وأماتوا البهجة والحب، ودنسوا كـل مقـدس حتـى المساجد لم تسلم من أذاهم. وهذا يؤكد أن المكان/ المدينة في فلسطين يواجـه

محنة الأعداء المتربصين الحاقدين الذين يجهضون كل معنى للحيـــاة، فـــهم أعداء الحياة، حيث لم يسلم من شرهم شجر أو حجر، طفل أو امرأة، صغـير أو كبير.

ومن واقع هذا الدمار والإجرام تبرز صورة المدينة فتبـــدو مدينـــة الأحزان والآلام، مدينة الموتى والجرحى والمستغيثين دون مغيث. ولعل ذلك دفع الشعراء إلى الالتحام بمدينتهم، فنسب أحدهم ــ في الأبيات الســـابقة ــ المساجد والمنازل والملاعب إلى نفسه حيـــن قـــال (مســـاجدي ومنـــازلي وملاعبي) وذلك يعكس شعوره بأنه منها، أي أنه حاول التفاعل مع ما يحدث لها من نكبات.

لقد أصبح انعدام الاطمئنان أو الشعور بالأمن والاستقرار بفعل جرائم المحتلين سمة واضحة في الأشعار التي تحدثت عن المدينة المنكوبة، وارتبط القلق بالموت الذي حل بكل شيء في المدينة. مما جعل صورة المدينة التـــي اتسمت بهذا الواقع المر باعثة على الحزن والأسى والألم.

ومما يزيد الحزن والأسى تذكر الشاعر للنكبات التي حلـــت بمـــدن أخرى عند احتلال فلسطين، فهذه المدن تعرضت للتدمير ولطرد أهلها منـــها تحت سمع العالم وبصره[٢٤]:

من لي بيافا كيف يذبـــح أهلـــها ... وربى الجليل بجادها متزاحمـــا
بل أين حيفا والأعادي تجوبـــها ... واه . . أيفني أهلـــها متفاقمـــا
في كل شبر من بلادي صيحـــة ... فجعوا الديار هل تصير مآتمـــا

لقد تعرضت المدن لأحداث مروعة وظروف عصيبـــة، وتعـــاقبت عليـــها أزمان قاسية، فساءت حالها، ولفتها ظلمة كئيبة وأصابها الخـــراب والدمـــار ولحق بأهلها البؤس والتشرد والإذلال، ومع هذا يظل الشاعر يفضـــل هـــذه المدن، ولا يحرص على نسيانها ولا يطمح إلى مدن أخرى، بل يظل متعلقـــا بها يأمل في استعادتها لبهائها وجمالها وحريتها وكرامتها.

إن هذا الارتباط الوثيق بين الشاعر والمدينة التي اغتصبت يعني أنها أصبحت رمزا للوطن، فهو يؤمن بها إيمانا مطلقا، ويتمســـك بـــها تمســـكا راسخا.

١ - المدينة المقاومة:

لطبيعة المكان الجغرافية والاجتماعية علاقة كبـــيرة بطبيعـــة أهلـــه وطبيعة سلوكهم، فالمكان الضيـــق والصغـــير مـــن الناحيـــة الجغرافيـــة، والمزدحمة بالسكان، نموذج للمقاومة والثورة، وأبرز مكان في فلسطين مـــن

هذه الناحية مدينة غزة، فقطاع غزة شريط ساحلي ضيق يحتوي على أعلى نسبة كثافة سكانية في العالم، يعيش أهله في ضائقة اقتصادية، يفتقد الموارد الطبيعية والصناعات الحيوية، يعتمد أهله في معظم شئون حياتهم على دولة الاحتلال، يستوردون أكثر مواردهم الغذائية والصناعية والتجارية من دولة الاحتلال، ويعتمد أغلب العمال في حياتهم على العمل هناك داخل الخط الأخضر، فلا توجد لهم فرص عمل حقيقية إلا هناك.

فمثل هذا المكان بكثافته السكانية، وفقر أهله، وضيق شوارعه وحواريه وافتقاره للبنية التحتية وهو نتيجة من نتائج النكبة وشاهد عليها، يكون عاملا إيجابيا ومساعدا على التمرد والثورة على المحتلين. لذلك شهدت غزة كغيرها من مدن فلسطين كثيرا من الثورات والانتفاضات، حتى قال رئيس وزرائهم المقتول "رابين": (أتمنى أن أستيقظ ذات صباح وأرى البحر قد ابتلع غزة).

عن هذه المدينة التاريخية التي استعصت على الغزاة يقول الشاعر "صالح فروانة" في قصيدة "غزة عاصمة الفقراء[٢٥]":

حين ينادي المجد رفاق الدرب
تلبين
يا عاصمة الفقراء
وقاهرة الأعداء
ومرفأ من حملوا منذ النكبة
أمتعة ما اهترأت
.....
يا صاحبة الصون
ولؤلؤة الكون
ورمحا لا يفتأ في صدر الغاصب يدمي
فحمامة عشق إن سكنت
وإذا ما انتفضت حطين
قدرك أن تمتهني الصبر
وأن تقفي في وجه هولاكو
شامخة عذراء

لم تستسلم غزة وأهلها للاحتلال، ولم يقبلوا بوجوده، فكانت من أوائل المدن الفلسطينية التي قامت بالثورة على هذا الاحتلال، ولعل شارون لم ينس معاركه التي خاضها في شوارع غزة ومخيماتها التي أذاقت جنوده مرارة

الموت والهزيمة، لذلك لجأ إلى "الجرافات" وقام في السبعينات من القرن الماضي بتدمير كثير من الدور والبيوت خاصة في المخيمات، الأسلوب نفسه الذي يتبعه الآن في قطاع غزة والضفة الغربية.

لقد ثار أهل القطاع وثار الأطفال قبل الكبار والنساء قبل الرجال ورأينا هذه المشاركة من قبل الجميع في هذه الانتفاضة المباركة "انتفاضة الأقصى" وسقط فيها الكثير من الأطفال شهداء وهم يواجهون دبابات الاحتلال ومجنزراته بحجارتهم المقدسة.

عن انتفاضة أهل غزة وثورتهم يقول الشاعر "سمير العمري" في قصيدة "أرض غزة"[٢٦]:

يا أرض غزة لا رأيت مذلة ... في كل إشراق وكل غروب
أطفالك الأبطال ثاروا مثلما ... ثار الخضم على رياح جنوب
الله أكبر صرخة دوت لها ... في القدس أصداء وتل أبيب
قد صرح الأبطال أن لن ننحني ... لن نرتضي بالذل والترهيب
هذي الديار ديارنا طول المدى ... كالشمس تشرق بعد طول مغيب

ويصف الشاعر عبد الكريم العسولي البطولة في جنين حيث التحدي والمقاومة الباسلة التي وقفت في وجه اجتياح الجيش الإسرائيلي للمدينة مركزا على صلابة المقاومة فيها وعارضا ملامح للمدينة المقاومة في أشكال تجسد بسالة الأبطال الذين استماتوا في الدفاع عن مدينتهم رغم نقص العدة والعتاد[٢٧]:

جنين يا خليلة كل مجد ... ويا سيف المعامع والتصدي
وقفت كمارد في وجه ثور ... أذقت جنوده بؤس التعدي
أتوا بجحافل كالسيل زحفا ... وغيظ في القلوب ونار حقد
فكنت جنين سيفا من إله ... وكنت الدرع للسيف المجد
بنوك فوارس للحق كروا ... بكل بسالة وبكل جهد
تنادوا للشهادة في سباق ... وفازوا بالكرامة يوم وعد
فأسقوهم كؤوس المر جبرا ... أذلوا كبرهم ندا بند

لقد ارتبطت المدينة بروح التحدي والتصدي للعتاة، وظهرت هذه المدينة شجاعة محاربة يعقد لها لواء البطولة، وهي تتحلى بالقدر الأكبر من الثبات والكرامة والعزة والإباء، إذ تحولت تحت أقدام الغزاة إلى لهيب ونار تحرق المعتدين[٢٨]:

ملك الخيبة شمشون

أتانا عنصريا
شيقا للدم العربي
وحشا تتريا
يحسب الضفة
أعشاش عصافير
وغزه
أرجوحة طفل
وسريا
وجد الأرض لهيبا
ورأى الشعب عصيا

إن المدينة المقاتلة أسفرت عن ملامحها الحقيقية في فترة الكفاح والمقاومة من أجل أن تبقى عزيزة، وهذه التضحيات الغالية وهذه الروح المقاومة التي أظهرها الإنسان تجاه مدينته تدل على أن المدينة هي عنوان للوطن، وأدرك الشاعر أن الدفاع عن المدينة هو دفاع عن الوطن وعزته وكرامته، لذلك أصبحت المدينة المقاتلة رمزا للوطن وللدفاع عنه.

القرية:

تعد القرية من الأماكن التي يحلم بها الرومانسيون ويلجأون إليها، لما تتصف به من جمال أخاذ وطبيعة رائعة، وخضرة ترتاح لها النفس والعين، وهدوء لا مثيل له، وحياة بسيطة بعيدة عن التعقيد والغرابة والغموض، إضافة إلى ذلك أناسها مسالمون طيبون يحلمون بالعيش الكريم، بسطاء في تفكيرهم وأحلامهم وطموحهم، يكدون ويكدحون لتوفير أبسط مقومات الحياة لأبنائهم.

وقرانا الفلسطينية كانت تعيش حياة آمنة مطمئنة، يعرف السكان بعضهم، يألفون ويألفون، ويحبون إخوانهم كما يحبون أنفسهم، وظل هذا حالهم حتى كان الاحتلال البغيض الذي دمر حياتهم وقضى على أحلامهم واحتل أراضيهم، لذلك كانت الصورة التي رسمها الشعراء للقرية الفلسطينية بعيدة عن الصورة الرومانسية الحالمة، وذلك بفعل الواقع المرير الذي يحياه المواطن الفلسطيني في القرية من أثر الاحتلال فكانت صورة القرية هي القرية المدمرة المحتلة المغتصبة، التي دمر الاحتلال مواردها وخرب وسائل الإنتاج فيها.

فالقرية التي كانت تموج بالحياة والحركة والنشاط أصبحت حزينة كسيفة. يقول الشاعر/ عبد الرحمن العشماوي في قصيدة "وقفة على أعتاب مستوطنة[٢٩]:

يا أبي
هذى روابينا تغشاها سكون الموت
أدماها الضجر
هذه قريتنا تشكو
يا أبي
وجهك معروق
وهذا دمع عينيك انهمر
هذه قريتنا كاسفة الخدين
صفراء الشجر

ومن الواضح أن الشاعر يرسم صورة حزينة لقريته، ويظهرها في صورة فتاة شاحبة كئيبة، لأن الاحتلال اعتدى عليها واستباح حماها.

لم يكتف الصهاينة بالتضييق على أهل القرى، بل قاموا بقتل أبناء بعضها وتدمير بيوتها وارتكبوا مذابح في بعضها الآخر، فمن القرى التي أحدث فيها اليهود مذبحة قرية "بيت ريما"، تلك القرية الهادئة الوادعة التي كانت تعيش حياة طيبة راضية، حتى ابتليت بعصابات المستوطنين وجيش الاحتلال الذي حول القرية إلى مقبرة، وقضى على مظاهر الحياة الجميلة فيها.

يقول الشاعر "صالح فروانة" في قصيدة "زرقاء بيت ريما[٣٠] :

قصتي حكاية مقبرة
كانت تسمى قبل يوم
بيت ريما
سكان بيت ريما نائمون
فيحرق البيوت والرجال والزيتون.

وبالإضافة إلى تدمير كثير من القرى يقوم المستوطنون بالاستيلاء على قرى أخرى وضمها إلى مستوطناتهم بعد طرد أهلها منها. عن هذا الواقع المرير يقول الشاعر[٣١]:

فلماذا يا أبي لم نسمع اليوم الآذان؟!
ولماذا اشتدت الوحشة في هذا المكان
هذه القرية ما عادت لنا

هذه القرية كانت آمنه
هي بالأمس لنا
وهي اليوم لهم مستوطنة

نعم، إن كثيرا من المدن والمستوطنات والكيبوتسات أنشأها اليهود على أنقاض القرى العربية التي كانت كلها قرى منتجة يعمل أهلها في الزراعة ويعيشون من خيراتها في أمن واستقرار.

زرع الصهاينة الأرض الفلسطينية موتا ودمارا وخرابا، لذلك كانت الصورة التي رسمها الشعراء للقرية الفلسطينية هي صورة القرية المنكوبة التي يسعى الاحتلال لضمها إلى أراضي مستوطناته، وعلى الرغم من كل المضايقات وعمليات البطش والقتل والإرهاب فإن أهل هذه القرى يقاومون ويصمدون في قراهم، ويستبشرون بالنصر الذي لا يرونه بعيدا.

المخيم:

للمخيم عامة مكانة كبيرة في النضال والمقاومة، ومن داخل هذا المخيم خرج المناضلون والثوار منذ انطلاق الثورة الفلسطينية، وكان لأبناء المخيم شرف إشعال شرارة الثورة وقيادتها.

يعد مخيم جنين من أبرز المخيمات التي تحدث عنها الشعراء في شعر الانتفاضة، وهو المخيم الذي واجه قوات الاحتلال وصمد في مواجهتها أكثر من أسبوعين من الزمان مما آثار حقدهم وجعلهم يقتحمون المخيم بدباباتهم وجرافاتهم وطائراتهم، ولم يدخلوه إلا بعد أن دمروا جزءا كبيرا منه على رؤوس سكانه.

عن التدمير والتخريب والقتل الذي أحدثه جيش الاحتلال في مخيم جنين بعد اقتحامه يقول الشاعر "خالد السعيد" في قصيدة "عائد إلى جنين" [٣٢]:

جنين هل مازال فيك مخيم ... أم غاله من قلب حضنك مجرم
أين الأحبة أين أحلام الصبا ... أين الأزقة ما لها لاتبسم؟

لقد ارتكب الصهاينة مجزرة وحشية في مخيم جنين اهتز لها العالم واستنكرها المجتمع الدولي قاطبة ومن وحي هذه المذبحة.

يلتقط الشاعر "عبد الوهاب زاهده" مشهدا إنسانيا مؤثرا، حيث يصور طفلا قتلوا أباه وأمه، والطفل يبحث بين القتلى عن أمه، علّه يجدها لترضعه حليبها الذي كانت تغذيه منه كل يوم. يقول الشاعر في قصيدة "لوحة تشكيلية" متحدثا على لسان الطفل [٣٣]:

. . فحبوت أسعى جاهدا
ما بين أشلاء وطين

كي ألقى أمي ربما/ غابت تعد لنا العجين
وظللت أصبو حائرا/ حتى وصلت المقبره
فإذا بأمي جثة/ فوق التراب مبعثره
الرأس كان مهشما/ والصدر منها لم أره
لكن سمعت دعاءها/ في كفها والحنجرة
حاولت أجمعها معا/ بعظامها المتكسرة
أقبلت أرضع ثديها/ فأتت على مجنزره
خلطت بعظمي عظمها/ فإذا هنالك قبره
صرخت بأعلى صوتها/ هي . . مجزرة . . هي مجزره

لقد تحدث الشعراء[٣٤] مطولا عن هذه المذبحة ووقفوا عندها ليصوروا الأفعال الرهيبة والأعمال الإجرامية البربرية التي ارتكبها جيش الاحتلال في هذا المخيم العنيد الذي تحداهم.

المخيم المقاوم:

لما استعصى المخيم على جنود الاحتلال وفشلوا في اقتحامه مرات عديدة، لجأوا إلى استخدام الطائرات العسكرية الحديثة التي يملكونها، واستخدموا الصواريخ والأسلحة المحرمة دوليا في سبيل تحقيق هدفهم باقتحام هذا المخيم، عن هذا الموقف يقول الشاعر "خالد السعيد" في قصيدة "عائد إلى جنين[٣٥]:

هل جاءكم نبأ المخيم حينما ... اقتحم العدو بكل ويل يهجم
والطائرات من السماء لهيبها ... والأرض دباباتها تتقحم
قلبت صواريخ اليهود مخيمي ... بركان نار باللظى يتجحم
فاسأل مخيمنا وسائل فتية ... صادوا اليهود فرائد ومقدم

وفي اقتحامهم لمخيم جنين لجأ الصهاينة إلى أسلوب لم يستخدم من قبل وهو الدروع البشرية، حيث استخدموا بعض أبناء المخيم من الذين وقعوا في الأسر دروعا بشرية ووضعوهم على مقدمة الدبابات والمجنزرات التي اقتحمت المخيم، وهذا الأسلوب محرم دوليا وآثار رفضا عالميا، لكن الصهاينة لا يحفلون باستنكار العالم ورفضه وشجبه. عن هذا الأسلوب يقول الشاعر "خليل عمرو" في قصيدة "لا لن يجهضوك يا جنين"[٣٦] :

لم نستطع أن نحصي ما حشد العدا ... فاق العتاد عقولنا والمنطقا
يا أم نصر هل رأيت لجبنهم ... رغم الدروع غدوت أكبر عائقا
لم يجرؤوا أن يدخلوا قلب الحمى ... إلا بربط بنيك درعا مسبقا

فالطائرات تصونهم من فوقهم وعويله ملأ البلاد محلقا
رغم المجازر بت أصلب شوكة في حلقهم أضحيت موتا زاهقا

لقد أصبح مخيم جنين رمزا للصمود والمقاومة، وآية من آيات البطولة والفداء، مما جعله مضربا للأمثال ومعلما بارزا من معالم النضال الفلسطيني، وأضفى بعض الشعراء شيئا من القداسة على هذا المخيم الذي حقق بصموده معجزة في الحرب العربية الإسرائيلية برغم بساطة الإمكانيات المادية، وقلة الأسلحة وبساطتها وعدم تطورها مقارنة بآلة الحرب الإسرائيلية يوضح ذلك قول الشاعر[٣٧]:

حيي جنين وحيي العز واستلم ركن المخيم والثم ما ارتوى بدم
وامسح بكفك هامات رعت ذمما وألق السلام على الآكام والقيم
أريج بدر فوق جنين نافحة أم جند عكرمة عادت من القدم

الأمكنة الفرعية:

البيت:

والبيت كما يقول باشلار هو ركننا في العالم، وهو كوننا الأول، وانه جسد وروح، إنه المكان الذي ألفناه، وهو المكون للخيال[٣٨]:

ولاشك أن كل إنسان يتشكل خياله، بل وجدانه، والمراحل الأولى من بنائه العقلي ورصيده من الأحلام والتخيلات ــ من البيت الذي قضى فيه طفولته، بأبوابه ونوافذه، وحجراته وردهاته بل وباقي بنائه وما في أي جزء منه من شعور بالأمن أو الخوف، أو لحظات الحزن أو لحظات الفرح[٣٩].

لقد كان البيت قبل أن يدنس الاحتلال أرض فلسطين رمز العزة والكرامة وعنوان الطهر والمجد، فهو الحصن وهو موطن الألفة والمحبة والخير. وقد كشفت عن ذلك أم تخاطب وليدها [٤٠]:

أي وليدي
كان لي بيت هناك
كانت العزة ثوبي
قد ورثت الطهر فيها لا انفكاك
كان لي زوج وأهل
يا صغيري
أنت روحي أين لي روح سواك
لست أنسى المجد والعز فداك
لست أنسى ذلك البيت

كيف دب السعد إذ ضم أباك
لست أنسى الأرض.

إن للبيت – في الأوضاع الطبيعية – رسالة إنسانية، وهذه الرسالة كما ظهرت في هذا النص تمثل الهدوء والطمأنينة وتعكس واقعا سعيدا ورمزا للعيش الهانئ والمحبة المتبادلة والتآلف بين أهله، لقد حاول الشاعر تبيان الحالة النفسية التي يشعر بها الإنسان عندما يكون في حالة تآلف مع المكان، لقد ظهر للبيت أهمية كبرى في حياة الإنسان حتى أنه أصبح له كيان وهوية تعكس هوية الإنسان ومشاعره ذاتها، فالسعادة والفخر والإحساس بالوجود سمة واضحة بعثها البيت وأضفاها على الإنسان.

وإذا كان البيت يمثل للإنسان المأوى والأمن والاستقرار، فإنه في فلسطين وعلى يد المحتلين الإسرائيليين أصبح مستهدفا، فالمحتل يريد أن يحرم الفلسطيني من الشعور بالأمل في هذا المكان، يريد أن يقطع التواصل بين الإنسان والمكان الذي يعيش فيه، لأنه يدرك أن ذلك مصدر شقاء وألم وعذاب للإنسان.

يقول الشاعر عبد الغني التميمي مصورا هذه الحالة التي يعيشها بنفسه [٤١]:

ذات يوم هدموا جدران بيتي
ورموني في العراء
تحت نهش البرد والظلمة في فصل
الشتاء
ليس شيء بين جلدي وصقيع الأرض
أو ندف السماء.

وتزداد الصورة مأسوية عندما يتحول البيت إلى قبر، فجنود الاحتلال لم يكتفوا بطرد الفلسطيني من داره الثانية بعد طرده سنة ١٩٤٨ من داره الأولى، فهم إمعانا في التدمير والإبادة يهدمون البيوت على رؤوس أصحابها، وهذا يحدث في مواطن كثيرة. ويذكر الشاعر جنين وغزة كنموذجين لما يحدث من هذا الإجرام [٤٢]:

البيت يهدم في جنين وغزة ... فوق العباد وتسحق الفلذات
والناس تجأر لا مياه ولا دوا ... لا ملجأ، أو ما به يقتات
أضحت ديارهم قبورا تحتها ... أشلاء موتى، أو بها أنات

لقد كان مشهد هدم البيوت من أكثر ما يثير الشعراء، ومما يزيد الأمر تعقيدا ما يترتب على هذا العمل من نتائج مؤلمة تتمثل في قتل أو تشتت أهل هذه البيوت وتعرضهم لمحنة قاسية[٤٣]:

لهفي على تلك المنـــازل هدمـــت والنـــاس بيـــن مشـــرد ومقتـــل
ضاقت بهم سبل النجاة وأطبقـــت عصب تسد من الدروب وتبتلـــى

ولم يسلم الأطفال من هذه القسوة، بل إن ذلك يبقى شاهدا على أبشع أشـــكال الإبادة والإجرام[٤٤] :

البيت يهدم والجبل
.....
والطفل يسبح في دماه
حتى الرضيع . . . أتسمعون
لم يرحموه
في حضن أم ترضعه

وفي صورة درامية مؤثرة ترسم الشاعرة سميرة الشرباتي فـــي قصيـــدة "تجمان والحمام" لوحة للطفولة البريئة التي أحبت المكان (ســـطح البيـــت)، فالطفلة أسماء وأخوها أحمد لهما أبراج حمام على سطح البيت الـــذي كـــان مسرحا للذاكرة الأولى، للحبو، للعب والطرب، وكان رؤى الدنيـــا وعوالـــم الأحلام، وبخاصة عندما يحقق هذا "السطح" للطفلين الأخوين: أسماء وأحمـــد ما يسعدهما من خلال صداقة حميمة مع رف حمام[٤٥]:

أسماء وأحمد
اسمان لروح يتوحد في جسدي أخوين ابتكرا لغة الأحلام
في أعلى السطح لها دمية
ولأحمد كرة ما زادت عن قبضة كف
.....
لهما في الجهة الشرقية من سطح البيت المتصدع أبراج حمام
لهما قلبا فرخ أزغب مازال يعانده الطيران
لهما في السطح صداقات مع رف حمام
ناداهما الحمام
ناداهما ليلعبا كما الكبار يلعبون لعبة السلام.

وفجأة تمتد يد الغدر لتوجه الرصاص إلى هذين الطفلين وهما فـــي لحظـــة سعادة على سطح البيت، فتخلف الدماء وتقتل البراءة وتجعل الحمام يفر حزينا من المكان[٤٦]:

لم ينزل الحمام من بروجه ليرتوي بالماء
بل أعلن انهزامه وأسلم الجناح للرياح
وغادر الحمام

لم تبق في المكان غير ذفقة الدماء
من العيون يهرب الضياء
.....
نجمان فوق السطح يهويان
وحينما تساقط النجوم من عليائها يصفق الغزاه
ويرقص الغزاة
وينتشي الغزاة إذ تصيدوا الحياة

ومن الواضح أن الحالة النفسية للشاعرة تلعب دورا في النظرة إلى المكان، ففي ظل القتل والتدمير تحول البيت في النص السابق إلى رمز للظلم والقهر وعنوان على البؤس والخوف والضياع، لما لحق به وبأهله من نكبات.

وهي صورة تخالف ما يحمله الإنسان الفلسطيني عن بيته القديم الذي سلب منه، والذي كان موطنا للعيش الهنيء والأحلام السعيدة والحياة المشرقة الناعمة[٤٧] :

لي في المدينة بيت كنت أسكنه وكان يأوي إليه كل مغترب
ولي ينابيع تجري في جداولها تغني الكروم عن الآبار والسحب

ويبقى البيت في وجدان صاحبه وقلبه وذاكرته، فرغم أنه طرد منه قبل أكثر من خمسين عاما، لم ينساه ولن ينساه، واحتفاظه بمفتاح ذلك البيت طوال هذه الفترة دليل على هذه العلاقة الوثيقة بين الإنسان وبيته، بين الإنسان والمكان الذي عاش فيه، فكان جزءا من وجوده وحياته [٤٨]:

لم يزل مفتاح بيتي في يدي
لم أزل احضن ذكرى بلدي

ويلاحظ على معالجة الشعراء لموضوع المكان/ البيت، أنهم لم يكثروا من الالتفات إليه بصورة تفصيلية، وجاء ذكرهم له أحيانا بصورة عابرة عند ذكر أمور أخرى، كما يلاحظ أن تناولهم لهذا العنصر المكاني يغلب عليها المعالجة الخارجية، أي أنهم التفتوا إليه من الخارج أكثر من التفاتهم إليه من الداخل الذي يعني معايشته و النظر إليه من خلال علاقاته بالإنسان الذي يسكنه، فقد شغل الشعراء ببعض ما حل بالبيت من دمار، وظهر ذلك من خلال معالجة بسيطة اقتصرت في أكثرها على ذكر حالة الهدم، وكان التركيز على الآثار التي حلت بالإنسان الذي يعيش في المكان أكثر من الاهتمام بالمكان نفسه وما يحمله من دلالات مختلفة. وكان من الممكن أن يحدث شيء مهم في معالجتهم للمكان/ البيت، وخاصة عندما

التفت بعض الشعراء أحيانا إلى جوانب ذات بعد إنساني إلا أنهم كانوا في أكثر الأحوال مشدودين إلى الظاهرة من الخارج، ويظهر أن الهدف الغالب على ذكرهم للمكان/ البيت، يتمثل في إبراز مظاهر الدمار والتخريب للكشف عن طبيعة ممارسات الاحتلال، ولعل هذا جعلهم لا يحفلون أو قل لا ينتبهون لفاعلية المكان، وكنا نتوقع أن يرسم الشاعر من خلال المكان/ البيت صورة واضحة وحية للفعل الإنساني، فيعلم على جدرانه بعض تواريخه ويحمله عبر معاناته شيئا من إنسانيته.

المسجد:

المسجد الوحيد الذي ذكره الشعراء في شعر الانتفاضة هو المسجد الأقصى، كيف لا يذكرونه؟ وهو قبلتهم الأولى ومسرى الرسول عليه الصلاة والسلام ومعراجه إلى السماء، وثالث المساجد التي تشد الرحال إليها، وله مكانة كبيرة في نفوس المسلمين، وقد وصى الرسول عليه السلام بزيارته وإن لم يتمكن المسلمون من ذلك فعلى الأقل يهدونه زيتا يضيء سراجه، لذلك، وخاضوا في سبيل تحريره معارك طاحنة على مدار التاريخ.

وللمسجد الأقصى مكانة في نفوس أبناء فلسطين والعرب والمسلمين أولاه المسلمون جل اهتمامهم، إليه تهفو قلوبهم، وتميل أفئدتهم، ويرتبط به وجدانهم ومما زاد القدس تقديسا وجود المسجد الأقصى فيها، وما تحتويه من مساجد وآثار إسلامية، لذلك أحب المسلمون الأقصى وعشقوه وامتزجت دماؤهم بترابه وحجارته في ساحته ومصاطبه.

يقول الشاعر "خضر جحجوح" في قصيدة "صخر الهوى" (٤٩):

عهدا ويا أقصى أتيتك عاشقا ودماء قلبي في الشوارع تشرق

إن الأقصى العزيز على قلوب أبنائه وأهله يتعرض لمحاولات صهيونية لهدمه وتهويده منذ بداية الصراع العربي الإسرائيلي عندما زعموا أن لهم حقا في القدس وفي الأقصى تحديدا وأعطتهم سلطات الاحتلال البريطاني الحق في العبادة والتعبد في حائط الأقصى، الذي أسماه اليهود "حائط المبكى" فأصبح هذا الجدار ــ ملكا لهم بقانون القوة.

يزعم اليهود أن هيكل سليمان وهيكل المعبد موجود أسفل المسجد الأقصى، لذلك وبعد أن تجرأوا علينا وعلى مقدساتنا، يقومون في الوقت الحاضر سرا وعلانية بالحفر تحت أساسات الأقصى بحجة البحث عن الهيكل المزعوم، وهدفهم الأساسي هدم الأقصى وتدميره، وما كانت محاولاتهم في عام ١٩٦٩ لإحراق المسجد الأقصى إلا خطوة في هذا الاتجاه. حيث استغلوا الضعف العربي والتفكك والانهيار الذي تعاني منه

الأمة الإسلامية، لتحقيق مآربهم وغاياتهم في تدمير الأقصى وإنشاء هيكلهم. عن هذه المحاولات الخبيثة التي يقوم بها الصهاينة بدعم من حكومتهم يقول الشاعر د. عبد الغني التميمي في قصيدة "رسالة من المسجد الأقصى"[٥٠]:

يبحث القوم عن الهيكل في أوجاعنا
يحفرون المسجد الأقصى على أسماعنا
يستبيحون حمانا ودمانا

ويقول في موضع آخر[٥١]:

مزقت آلاتهم بالحفر جوفي
وأشاعوا أن موتى حتف أنفي
هذه الأنفاق تحتي تزرع

إن المساجد ودور العبادة، لها حرمتها وقدسيتها عند كل الأديان والشرائع إلا عند الصهاينة الذين لم يراعوا حرمة لمسجد أو لكنيسة، فنراهم بجندهم وخيولهم وكلابهم يقتحمون المساجد ويطاردون المصلين ويطلقون عليهم النار، فيقتلون منهم ويجرحون، ومن أشهر المذابح التي ارتكبوها في المساجد مذبحة الحرم الإبراهيمي التي قتل فيها المجرم "غولدشتاين" أكثر من ثلاثين مصليا وهم سجود بين يدي الله عز وجل، ومذبحة الأقصى التي حصلت عندما استباح شارون حرمة المسجد الأقصى، وعن مذبحة الأقصى، يقول الشاعر "د. عبد الغني التميمي" في قصيدة "مجزرة[٥٢] :

في ساحة الأقصى/ تدور مجزرة
مدافع منصوبة/ وجثث منتثرة
رجالنا نساؤنا/ أطفالنا مستنفرة
دماؤنا نازفة/ نساؤنا محسره
لحومنا دماؤنا/ على التراب مهدره

يئن الأقصى ويعاني ويتألم من الواقع المرير الذي يوجد فيه، ومن ممارسات قوات الاحتلال الإجرامية الرامية إلى هدم الأقصى، ومن سلبية العرب وتخليهم عنه، ومن إعراض المسلمين عن نداءاته واستغاثاته.

يتوجه الشاعر "د. عبد الغني التميمي" إلى المسلمين داعيا إياهم إلى الغضب من أجل الأقصى ومن أجل المحارم التي انتهكت، والمعالم التي محيت، فمتى يغضب المسلم إن لم يغضب الآن لفلسطين وأقصاها. فيقول[٥٣]:

أخي في الله، أخبرني: متى تغضب؟!
إذا نكبت معاهدنا

إذا هدمت مساجدنا
وظل المسجد الأقصى
وظلت قدسنا تغضب
ولم تغضب

أما الشاعر "سليمان غزال" فيدعو المسلمين إلى الثورة من أجل الأقصى ويدعوا الفلسطينيين إلى تطهيره بدمائهم الزكية وتخليصه من أيدي اليهود الحاقدين. فيقول في قصيدة "انتفاضة الأقصى"[٥٣]:

سطر بدمك آيات البطولات يا شعبنا الحر في أرض الرسالات
وطهر المسجد الأقصى وصخرته من عصبة الفسق أعداء الديانات

الساحة ــ الدرب ــ الطريق ــ الرصيف:

يرتبط الإنسان بالمكان ارتباطا وثيقا خاصة المكان الذي يولد ويتربى فيه، أو المكان الذي له فيه ذكريات معينة، والذي يمثل له شيئا ما، فيظل الإنسان مرتبطا بهذا المكان وإن غادره أو ابتعد عنه فإنه يظل قلبه متعلقا به، ويحن إليه، والإنسان الفلسطيني من أكثر الناس ارتباطا بالمكان، لأنه يمثل بالنسبة له عامل تحد للمحتل، وعامل وجود وحياة، وفي هذه الانتفاضة اشتد ارتباط الفلسطيني بالمكان ــ الشارع ــ الساحة ــ الرصيف، وهي أماكن يتجمع فيها الشبان والأطفال الفتيان لممارسة دورهم النضالي في الانتفاضة، ولمقارعة الاحتلال ومحاربته بالسلاح الذي يمتلكونه وهو سلاح الحجارة، وإذا كانت وظيفة هذه الأماكن في بلاد العالم لما خلقت ووجدت له، من السير فيها بحرية وبأمان ومن الالتقاء فيها بالأصحاب والأصدقاء وغير ذلك، فإنها في فلسطين أصبحت أماكن تجري عليها وفيها أحداث خطيرة وكبيرة، ففيها يقتل الشباب وتجري الدماء، وتجرف وتدمر لتمنع المواطن من الإفادة منها واستخدامها.

للرصيف في كل الدنيا وظيفة أساسية وهي أن يسير عليه المشاة بعيدا عن خطر السيارات والمركبات التي تسير على الشارع، ولكن الرصيف في بلادنا يتساوى في خطورته مع الشارع فلا مكان آمن، فالقتل يكون في الشارع وعلى الرصيف وفي البيت وفي كل مكان تطاله أسلحة جيش الاحتلال. ولعل من أشهر شهدائنا الذين قتلوا على الرصيف وهو يختبئ في حضن والده الشهيد "محمد الدرة". وفي ذلك المشهد الذي تحول فيه الرصيف إلى شاهد على همجية ونازية قوات الاحتلال يقول الشاعر/ حسن الباش، في قصيدة "حتى يصيح الفجر قد نطق الحجر"[٥٤]:

حلم . . رأيت فراشة بيضاء،
تسحب من منمى نفساً،
وتقلع . . ثم تهوى . . ثم تقلع،
ثم تحضنها السماء
وعلى الرصيف، رأيت مطحنة/ الدماء
ورصاصة تجتر قتلى
. والفراشة أصبحت حمراء
كالشفق المهدر بالمغيب

يقوم المحتلون الآن باستخدام وسائل رهيبة لم يستخدموها من قبل وهي القتل بواسطة الصواريخ الموجهة فيتم رصد الإنسان المطلوب قتله ثم يقصف بصاروخ فتتحول جثته إلى أشلاء متطايرة على امتداد المكان الذي يتم فيه القصف، فيختلط اللحم البشري بتراب الوطن مشكلا لوحة مأساوية بعيدة عن الحضارة الإنسانية وعن الشرائع السماوية.

يقول الشاعر "رمضان عبد الله" في قصيدة "رسالة إلى المعتصم"[٥٥]:

أشلاؤنا في كل شارع
في كل جامع/ في كل بيت
تتناثر الأشلاء، والأشياء والأسماء

لقد نشر المحتلون الموت في كل شبر من أرضنا وفي كل شارع ودرب وساحة يقول الشاعر عدنان النحوي[٥٦] :

الدار والساحات تختلط الدماء بها بدمع في المرابع مشعل

وإذا كان المكان (الرصيف، الشارع) في النماذج السابقة مسرحا للإجرام وشاهدا عليه (مكان سلبي)، فإن له في نماذج أخرى دورا آخر، إنه المكان حيث يكتسب أهميته من الأحداث التي تجري فيه، ففي انتفاضة الأقصى كان للمكان (الشارع والرصيف) أهمية واضحة إذ كان الأطفال والفتيان والشبان يلتقون ويتجمعون في ذلك المكان، ثم ينطلقون إلى حيث القوات الإسرائيلية ويقومون ــ بإلقاء الحجارة عليها.

حول هذا المشهد يقول الشاعر/ صالح فروانه، في قصيدة "مصرع فتى يدعى فارس"[٥٧] :

ويلتقي على الرصيف/ جيشا من الصبيان
سلاحهم مجرد الإرادة/ وبأسهم شديد
كتيبة تجمعت أفرادها
في كل شارع/ مواكب تجمعت

وكل موكب يقوده فتى

السجن:

تعد السجون مكانا معاديا يثير الرعب والتشاؤم في نفس الإنسان، وتستخدم هذه السجون لقهر المقاومين وإذلالهم لهم، وهي من الأماكن التي ذكرها الشعراء، وتحدثوا عن الوسائل التي تستخدمها سلطات الاحتلال لتحطيمهم، ولكنهم لا يأبهون لذلك، لأنهم يعلمون أن السجن هو جزء من الثمن الذي لا بد من دفعه.

كانت السجون مصير كثير من المقاومين والمناضلين يقعون في أيدي قوات الاحتلال التي أرادتها أن تكون نهاية للأحلام في نفوس المقاومين ومواجهة للمجهول المرعب، ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية تلجأ سلطات السجون إلى ممارسة أبشع صور التعذيب الجسدي، الممنوعة دوليا، حيث تحرم وثيقة جنيف ووثيقة حقوق الإنسان (الصادرة من الأمم المتحدة) التعذيب الجسدي والنفسي. يصور الشاعر "عمر خليل" بعضا من الوسائل التي تلجأ إليها سلطات الاحتلال لتركيع المناضلين وتعذيبهم وانتزاع الاعترافات منهم. فيقول في قصيدة "لن أركع"[٥٨]:

برغم السجن والسجان والقيد
ورغم زنازن التعذيب والتحقيق
والتعليق من قدم ومن زند
ورغم مطارق الجلاد واللعنات
يرسلها، ورغم القيء والبرد
سيعلو صوتي المحبوس كالرعد.
ولن أركع.

إن كل وسائل التعذيب والتضييق والإذلال لن تقهر المناضل الفلسطيني، ولن تجعله يركع أو يستسلم للجلاد، وستزيده تمسكا بحقه وإصرارا على المقاومة حتى الاستقلال والحرية.

إن السجين وهو تحت أيدي الجلادين يحاول أن يهزمهم بعناده وصموده أمام همجيتهم، لأن المواجهة والحرب في تلك اللحظات هي حرب إرادة وعزيمة.

يقول الشاعر د. محمد وليد في قصيدة "فلسطين أمي"[٥٩] :

حنانك يا أم إني فداك
برغم العذاب ورغم السجون
سأقهركم أيها الغاصبون

برغم العذاب ورغم السجون
فلا تفرحوا باعتقالي وقهري

ويؤكد هذا المعنى الشاعر/ محمد أبو مصطفى في قصيدة "لا يغتالنا صدأ القيود"(٦٠):

وسجونهم لن تقتل الإحساس
في أرواحنا ــ عشقا ــ لهول الانفجار

للسجون في بلاد العالم وظيفة أساسية وهي الإصلاح التهذيب، والعمل على إعادة المسجون إلى المجتمع ودمجه في الحياة من جديد، لكن للسجون الإسرائيلية وظيفة أخرى وهي التدمير النفسي والجسدي للمسجون، فكثير من المساجين يخرجون من هذه السجون بأمراض وإعاقات جسدية وأمراض نفسية نتيجة التعذيب، ونتيجة للعزلة التي يودع فيها المناضل، حيث يوضع في زنزانة ضيقة لا تدخلها الشمس ولا الهواء إضافة إلى رداءة الطعام الذي يقدم له، ومنع الزيارة للمعتقل من قبل الأهل.

يصور الشاعر/ د. "إبراهيم المقادمة" ما يجري في غرفة من غرف التحقيق في أحد السجون الإسرائيلية ويصور الوسائل والأدوات التي يستخدمها الجلادون من تقييد للأيدي وتغطية الرأس بكيس يخنق من يوضع على رأسه برائحته النتنة وعدم نفاذ الهواء من مساماته. يقول الشاعر في قصيدة "في التحقيق"(٦١):

ويأتي الليل يطرق بابنا المقفل
ويمضي الليل، هيا دونكم جسدي
وهات القيد، مزق معصمي الأجدل
وهات الكيس واكتم زفرتي الحرى
وصب الثلج، في كانون في صدري
وهات الغاز واحرق مقلتي الحرة
وسد منافذ الأنفاس في رئتي فلن أوجل
ويمضي الليل هيا، دونك، اصلبني
على الجدران، واحرم مقلتي النوم
هات الركل، هات الضرب، لا تبخل
وكل وسائل التعذيب جربها، فلا تخجل

هذه بعض وسائل الصهاينة لتحقيق هدفهم وغايتهم من قتل المعتقل نفسيا وجسديا، لكن غالبا ما تكون النتيجة عكس ما تشتهيه إرادة الجلاد وهو ما يؤكده الشاعر "المقادمة"(٦٢) :

ومن ظلم الزنازين
سأخرج في يدي المشعل

إن المناضلين يعلمون أن طريق العزة الكرامة لا بد أن تمر بهذه الزنازين، لذلك هم لا يخشونها وهم على استعداد لدفع الثمن من أجل كرامة وطنهم وأمتهم، يقول الشاعر "المقادمة"(٦٣):

إن درب العز مفروش بأنات الجراح
بالضحايا، باليتامى، والثكالى، بزنازين/ العذاب

اتضح من تناولنا لصور المكان وضوح الظاهرة المكانية في شعر انتفاضة الأقصى، وهي ظاهرة ارتبطت بالقيم الدلالية في ذلك الشعر، وسوف تتضح هذه الصورة من خلال الإحصاء الذي قمنا بإجرائه حول نسبة تردد صورة كل مكان من الأمكنة التي وردت في أبرز مجموعة شعرية ضمت أكثر شعر انتفاضة الأقصى وهي (مختارات من شعر الانتفاضة)، المصدر الأساسي الذي اعتمدنا عليه في هذه الدراسة. وسيكون اهتمامنا منصبا على حصر دلالة كل نوع، ويتضح من هذا الحصر استخدام الشعراء لصور الأمكنة للتعبير عن دلالتين بارزتين:

١- الدلالة الإيجابية، ونعني بها الدلالة المعبرة عن معاني (الأمل، الإشراق، الخير، البهجة، السعادة، الانتصار، الأمن، الحرية، العزة)، وغيرها من المعاني التي تدل على التفاؤل.

٢- الدلالة السلبية، ونعني بها الدلالة المعبرة عن معاني (الحزن، القلق، الخوف، القسوة، الحصار، الضياع، الهزيمة، الانكسار، الإذلال، الغربة، الظلام، العذاب، القهر)، وغيرها من المعاني التي تدل على التراجع والتشاؤم والظلم، ولعله من المفيد تقديم نموذج من عبارات أو جمل من الأشعار التي تحمل تلك الدلالات بأبعادها الإيجابية أو السلبية، ولا يسمح المقام بذكر جميع ألفاظ المكان، وسنكتفي بعرض نموذج على سبيل التمثيل على أن يتضمن الإحصاء كل ما ورد من ألفاظ الأماكن بدلالاتها المختلفة، ونتبع ذلك بتوضيح أو تحليل لذلك الإحصاء.

حصر بعض ألفاظ المكان ودلالاتها (نموذج) من (المختارات)

م	القصيدة	الصفحة	النص	نوع المكان	الدلالة
١	القدس في الأسر	٥٥	القدس في الأسر لازالت تعاني	مدينة	سلبية
٢	أعلنوها جهادا	٥٩	دنسوا القدس واستباحوا حماها	مدينة	سلبية
٣	يا قدس	٢١٥	يا قدس يا حسناء	مدينة	إيجابية
٤	التحدي	٢٣٠	للمجدل المحزون يسكب في الدجى	مدينة	سلبية
٥	قصة القدس	٢٣٩	هذه القدس نسيج من سناء وطهارة	مدينة	إيجابية
٦	قصة القدس	٢٣٩	قصة القدس دماء وجراح	مدينة	سلبية
٧	أطفال الحجارة	١٤٥	في غزة الأبطال... نفائس	مدينة	إيجابية
٨	فيالق التحرير	١٨٣	وتهللت يافا بمولد ثورة	مدينة	إيجابية
٩	القدس	١٨٨	وأين غزتي؟ يدق رأسها السجان	مدينة	سلبية
١٠	أطلق يدي	١٩٦	صفد يا قوم في حشرجات الموت	مدينة	سلبية
١١	معركة طوباس	٨٦	برقين تزهو	قرية	إيجابية
١٢	معركة طوباس	٨٦	برقين صارت للبطولة منبعا	قرية	إيجابية
١٣	وقفة على أعتاب مستوطنة	٢٠٠	هذه قريتنا كاسفة الخدين	قرية	سلبية
١٤	وقفة على أعتاب مستوطنة	٢٠٠	هذه القرية ما عادت لنا	قرية	سلبية
١٥	عائد إلى جنين	٨٣	ومخيم الشهداء لا يستسلم	مخيم	إيجابية

حصر بعض ألفاظ المكان ودلالاتها (نموذج) من (المختارات)

م	القصيدة	الصفحة	النص	نوع المكان	الدلالة
١٦	عائد إلى جنين	٨٣	فالجنان مخيم	مخيم	إيجابية
١٧	آه جنين	٢٥٩	آه جنين/ يا صرخة الوطن الذبيح	مخيم	سلبية
١٨	جنين	٣٢٧	وسنكتب التاريخ يا جنين	مخيم	إيجابية
١٩	جنين البطولة والمجزرة	٢٦٧	فكنت جنين سيفا من إله	مخيم	إيجابية
٢٠	المسجد	٣٦٦	وخيامنا حبلى بأبطال الغد	مخيم	إيجابية

جدول رقم (١)

عدد مواضع ورود مفردات الأمكنة الرئيسة في (مختارات من شعر الانتفاضة)

م	المكان	الدلالة الإيجابية	الدلالة السلبية	المجموع
١	المدينة	٨٠	٦٦	١٤٦
٢	القرية	٦	٧	١٣
٣	المخيم	٢٠	٦	٢٦

يتضح من الرصد السابق الآتي:

ورود لفظة "المدينة" أكثر من "القرية" و"المخيم"، فقد وردت لفظة "المدينة" مائه وستا وأربعين مرة، في حين وردت لفظة "القرية" ثلاث عشرة مرة، ولفظة "المخيم"، ستا وعشرين مرة.

وقد يرجع ذلك إلى أن المدينة تمثل مركز السلطة، ولذلك كانت مستهدفة أكثر من غيرها، خاصة وأن أكثر المدن الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة قريبة من المخيمات التي شهدت أحداثا عنيفة وصدامات شديدة مع المحتلين، حيث لا نجد مدينة إلا ويجاورها مخيم من المخيمات، كما أن

معطيات المدينة أثرى من معطيات القرية أو المخيم بما فيها من فعاليات وأنشطة سياسية وفكرية.

كما يظهر من الرصد أن لفظة المخيم وردت أكثر من لفظة القرية، وذلك لأن المخيمات أكثر احتقانا وأكثر توترا لما هو معروف عنها من ازدحام وفقر وبؤس ومعاناة تدفع سكانها إلى التحدي والرفض والمقاومة، ولذلك فإن أكثر الأحداث والصدامات والاجتياحات كانت في المخيمات مما يعطي فرصة أكبر لذكرها والحديث عما يحل بها من دمار وخراب وخسائر بشرية ومادية.

ويتضح أيضا من الرصد السابق أن الدلالة الإيجابية للفظة المدينة تطغى على الدلالة السلبية حيث وردت ٨٠ مرة إيجابيا و٦٦ مرة سلبيا ولعل ذلك يرجع إلى تفاؤل الشعراء تجاه المدينة التي تبقى رمزا للوطن وقد تحمل معاني روحية (كالقدس أو الخليل) تبعث في النفوس الأمل في تجاوز النكبات والصعاب.

كما يظهر تقارب الدلالة الإيجابية والسلبية للفظة القرية، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة القرية وطبيعة الأحداث التي تمر بها، فهي ـ في الغالب ـ أكثر استقرارا وبعدا عن الصراع اليومي الذي قد تشهده المدينة أو المخيم.

ومما يلفت النظر أن لفظة المخيم وردت بدلالتها الإيجابية ٢٠ مرة وبدلالتها السلبية ٦ مرات، وهذا تفاوت كبير بين الدلالتين ولا يمكن تفسير ذلك إلا بالنظر إلى حقيقة مهمة وهي أن المخيم لم يعد ينظر إليه على أنه رمز البؤس والشقاء والفقر والمعاناة، بل أصبح بؤرة الثورة ومركز الصدام والتحدي والقتال ومقاومة المحتلين، ومهما تعرض له من دمار وقتل فإنه يبقى رمز المقاومة والصمود.

جدول رقم (٢)

عدد مواضع ورود مفردات الأمكنة الفرعية في (مختارات من شعر الانتفاضة)

م	المكان	الدلالة الإيجابية	الدلالة السلبية	المجموع
١.	البيت	٥	٣١	٣٦
٢.	الشارع، الدرب، الساحة	١٣	٢٣	٤١
٣.	المسجد	١٣	٤٥	٦٣
٤.	السجن	١١	٥	١٦

ويتضح من هذا الرصد أن الدلالة السلبية لمفردات الأمكنة الفرعية طغت على الدلالة الإيجابية في أكثر الحالات، وذلك قد يعكس حضور هذه الأمكنة في فعاليات انتفاضة الأقصى، فالشوارع والدروب والساحات والمساجد كانت مسرحا للأحداث والصدامات، كما كانت البيوت أكثر الأماكن تعرضا للهدم أو الاقتحام أو اعتقال الناس فيها، بما يؤكد أن تلك الأمكنة لعبت دورا رئيسا في الصراع، ولكن يلاحظ أن السجن وحده ينفرد عن الأماكن الفرعية الأخرى بأن الدلالة الإيجابية طغت فيه على الدلالة السلبية، رغم أن السجن رمز القهر والظلم، ويمكن رد ذلك إلى روح التحدي وارتفاع الروح المعنوية لدى أفراد الشعب الفلسطيني واقتناعهم بما يقدمونه من تضحيات، وما يتحملونه من مسئوليات في هذه الانتفاضة لأنهم على يقين بأن هذه التضحيات هي السبيل الوحيد إلى التحرر والاستقلال.

إننا بعد تناولنا لصور المكان ودلالاته نلاحظ أن الأماكن سواء كانت رئيسية أم فرعية، لم يلتفت أكثر الشعراء إلى مظاهر الحياة فيها، كما لم يلتفتوا ــ في الغالب ــ إلى علاقات الأفراد بها، حتى في تلك الأماكن التي تحمل أسماء، فهذه الأماكن مسماه أو غير مسماة، هي في مجملها بدت كرموز للقهر والاستلاب، وجاء الحديث عن أغلب هذه الأماكن مجملا يطغي على كثير من تفاصيل الملامح المميزة لتلك الأمكنة، وتسود نزعة خطابية في الحديث عن تلك الأمكنة وبخاصة عند الحديث عن البطولة والمقاومة وتحدي المعتدين، وعلى ذلك يظهر تناول المكان والتعامل معه لدى الشعراء كمسرح نشاط خارجي أكثر منه بؤرة حياة داخلية، لقد كنا نتوقع أن تكون للشعراء تجاه الأمكنة رؤية ذاتية، مما يعني أننا نفتقد في الغالب خصوصية للمكان عند كثير من الشعراء، ويلاحظ أيضا وضوح صور نمطية للمكان يكاد يغلب عليها التكرار بحيث تبرز ملامح مشتركة ورؤية متقاربة إلى حد بعيد عند الشعراء، وتنحسر النزعة الذاتية التي تميز موقف كل شاعر من المكان، ولعل سبب ذلك يرجع إلى الهم السياسي، ومعاناة الواقع الصعب، وتلاحق الأخطار والمشكلات التي يواجهها الإنسان في وطنه، بحيث أصبح هناك هم مشترك يلح على الناس في كل وقت وحين، وقد جاء في ــ مواقف عديدة ــ وصف المكان والتعامل معه بصورة مبسطة تفتقد إلى العمق، أو إلى معايشة المكان أو إدراكه إدراكا عميقا بالنظر إليه ككائن حي، وقد أدى ذلك أحيانا إلى شحوب المكان أو اهتزازه وبخاصة عندما نفتقد شخصية محددة لذلك المكان، أي عند ابتعاد الشعراء عن تحديد ملامح للمكان وتفصيل هذه الملامح والاكتفاء بدور ثانوي لهذا المكان.

أبعاد جماليات المكان في شعر انتفاضة الأقصى

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة وثيقة، إذ ليس المكان مجرد محتوى جغرافي أو موقع، إنما هو علاقة تقوم بينه وبين الإنسان، وهذه العلاقة تتضمن الأحلام والأساطير والتاريخ. "كما أن الإحساس بالمكان/ الوطن إحساس له أصالته وعمقه في الوجدان البشري، لأن المكان يصبح هنا هوية تاريخية ووطنية ونفسية"(٦٤):

ونظرا لتداخل الأمكنة في حياة الفلسطينيين وتجذرها في كثير من معانيهم أصبحت تشكل دلالات ترتبط بشكل أو بآخر بنفسياتهم وبسلوكياتهم وبهمومهم وآلامهم وآمالهم.

ويمكن تقسيم أبعاد جماليات المكان في شعر انتفاضة الأقصى إلى بعد اجتماعي وبعد نفسي وبعد روحي، ولعل طبيعة تعامل الشاعر مع المكان، وموقفه من ظروف حياته ومجتمعه وتأثير المكان في طبيعة تلك الحياة هي التي فرضت مثل هذا التقسيم. ونحن حين نأخذ بهذا التقسيم ندرك أن الحدود بين هذه الأبعاد ليست نهائية أو صارمة لأن هناك ــ إلى حد ما ــ مظاهر تداخل واشتراك بينها، فالحديث عن البعد النفسي للمكان لا ينفصل تماما عن المضمون الاجتماعي أو الروحي، بل إنها قد تتفاعل أو تتكامل.

١ – البعد الاجتماعي

لا شك أن للبيئة أثرا كبيرا في الإنسان، فهو "نتاج لسطح الأرض، وهذا لا يعني فحسب أنه ابن الأرض وحفنة من ترابها، بل إن الأرض بمثابة الأم له، أرضعته بلبانها، وحددت له واجباته ووجهت تفكيره، وجابهته بالصعوبات التي قوت من جسده، وشحذت ذهنه ... لقد تخللت عظامه ونسيج لحمه بل عقله وروحه"(٦٥):

والحق أن العلاقة تبادلية بين تأثير المكان على الإنسان وتأثير الإنسان على المكان، إذ إن الخبرة التاريخية للإنسان جعلت منه مؤثرا في المكان(٦٦) ، وجعلت المكان غير بعيد عن تكوين الإنسان، لذلك بقي المكان لصيقا بالتاريخ والحضارة وشاهدا حيا على التطور والتغير، وسجلا أمينا لأفعالنا وأفعال من سبقونا.

والمتأمل لكثير من شعر انتفاضة الأقصى يشعر أن الشعراء كانوا متواصلين ببيئتهم ومجتمعهم متأثرين بما شهدته من أحداث وما تحفل به من قيم فكرية واجتماعية وروحية. وكان للمكان وقع خاص في نفوسهم، وفي منظومة حياتهم الاجتماعية، إذ كان مظهرا ناصعا ينجذبون إليه فيؤثر فيهم ويؤثرون فيه.

وبلغ من ارتباطهم بالمكان وتعلقهم به أنه أصبح رمزا للوطن وللعزة والكرامة، يحمل معاني الحنين والشوق ويعكس أمارات الحزن والمرارة أو علامات الأمل والبشر والتفاؤل.

لقد احتلت الأرض سواء القرية أم المدينة التي طردوا منها أو رحلوا إليها موقعا مؤثرا، فقد شحذت قرائحهم، وكانت ملهمة لشاعريتهم، ويمثل الحنين إلى ربوع الأرض السليبة برياضها وأشجارها وعطرها وثمرها والذكريات السعيدة الجميلة فيها مظهرا من مظاهر الانتماء والإحساس الصادق بالمكان/ الوطن. يقول الشاعر سمير عطية معبرا عن شوقه الذي استبد به لتلك المواطن التي افتقدها والتي لا تغيب عنه"[٦٧]:

يا موطني أشواقنا ملء الفضا ... وحنيننا لا ينتهي ببعاد
نرنو إلى الأعتاب نخطب ودها ... وبنا مواويل إلى الإنشاد
لمواسم الزيتون يحكي عشقها ... فلاح يعصر زيتها بفؤادي
ويقيم بالحنون عرس مدائني ... وعلى الروابي ضحكة لبلادي
والفل والريحان بين دروبها ... تهدي الصحاب حلاوة الميعاد

ومما لا شك فيه أن المكان في واقع الإنسان في فلسطين له خصوصية تميزه عن غيره، فعلاقته بالمكان تنبع من إحساسه بالمعاناة والألم والفقد والنفي والغربة الناتج عما تعرض له من طرد واقتلاع قسري من أرضه، لذلك تبقى تلك الأرض في وجدانه وقلبه وعقله تدفعه نحو استرداد المكان والسعي من أجل العودة إليه لأن" الإنسان بدون المكان، الوطن يصبح كائنا مفتتا"[٦٨]. إن المكان والتمسك به يحقق الوجود والتواصل مع الأرض والإنسان، وفي غياب المكان تنتفي الأشياء وقيمتها، ويصبح اللامكان مصدر الخطر على وجود الإنسان وبقائه، ذلك ما أكده محمود درويش في قوله"[٦٩]:

ليست الأرض اغترابا مزمنا
فاخرج من أناك إلى سواك
ومن رؤاك إلى خطاك
ومد جسرك عاليا
فاللامكان هو المكيدة

ورغم كل محاولات الأعداء تغيير المكان وجماله بما نشروه من بؤس وظلم وشقاء[٧٠]:

أخذوا الربيع من المكان، صباح
أمس، وأورثوني قمة البركان

فإن ارتباط الإنسان بأرضه يزداد، ومما يكشف عن هذا الارتباط حرصه على أن يعيش فيها وأن يموت فيها أيضا، وهذه دعوة من أخ إلى أخيه يدعوه فيها إلى أن يحمله إن مات إلى شجرة ليدفن في ظلها، فقد رواها في حياته بعرقه ودموعه ومهرها بالدم كي تبقى رمزا للعطاء والجمال، احتضنت أباه وأمه وكان حضنها الدافئ مصدر الأمن والخير والسلام[٦٧]:

أخي إن مت فاحملني إلى شجرة
فما عشنا لغير الأرض والشجرة
رويناها بأدمعنا
مهرناها بغالي الدم كي تؤتي لنا ثمره
نسجنا من رموش العين أستارا
لكي ترعى لنا الزهرة .. فلا تقطع
أبي صلى بفيء النخل والزيتون
والكرمة
وأمي أهدت الغيمات كم بسمة

ومما يلاحظ أن بعض الشعراء حاولوا صبغ حديثهم عن المكان بالملامح الإنسانية من خلال الصور الحية التي يستمدونها من الحياة والمجتمع، فالوطن/ فلسطين هي الأم الحنون، ولكنها حزينة باكية لما تتعرض له من انتهاك وإذلال، لذلك يهب أبناؤها يفدونها بأرواحهم، يحمون حماها دفاعا عنها وعن كرامتها، ويناجيها شاعرها بمثل هذه المعاني وبمشاعر فياضة ولكن بكلمات لا تخلو من خطابية واضحة بقوله[٧٢]:

تنوح بصوت حزين
.....
حنانك يا أم إني فداك
برغم العذاب ورغم السجون
وإني سأتيك فوق سروج الغمام
وفوق الحزون

ومن مظاهر البعد الاجتماعي تأكيد الشعراء على أن الوطن لم يكن مجرد مكان للعيش أو مصدرا من مصادر الحياة وطلب الرزق فحسب، بل كان الثورة التي تموج وتشتعل والشاهد على البطولة والتضحية والبسالة من كل فئات الشعب التي التحمت بالأرض التحاما لا يقبل الانفصال أو الرحيل[٧٣]:

فالأرض تحت ظلالنا
تمتد في أحضاننا، وتدور في خفقاتنا

تأبى الرحيل
فالأرض كانت رقصة الحناء
كانت ثورة الشعراء والأطفال والشهداء
والترتيل
الأرض كانت ربة الوعد
كانت دربنا الموصول

ويمتزج في الأرض/ الوطن ــ بدافع الوفاء لها والانتماء إليها ــ عطر أطلال البيوت بعطر الدماء الزكية جاعلا من الأرض مرآة وعنوانا للأمل والتفاؤل بنصر عزيز[٧٤]:

آه جنين
لم يبق إلا عطر
أطلال البيوت
عطر عزيز لن يموت
عطر الضحايا الباسلين
عطر سينسج في القلوب
القلوب
ويصير نورا للعيون
عطر ينسج نجمه
ويضيء ليل العائدين

والقصيدة حافلة بالألفاظ الموحية التي تعبر عن الأمل والتفاؤل والإيمان بالمستقبل مثل: (عطر، عزيز، باسل، قلوب، نور، عيون، ينسج، نجمة، يضيء، عائد)، كما عمد الشاعر إلى تكرار كلمة عطر ليدلل على قناعته بجدوى التضحيات وحتمية دورها في صنع المستقبل المشرق الذي يضيء الطريق نحو حياة كريمة.

ولعل اختيار الشاعر وتعبيره ووصفه الأماكن الحافلة بالأحداث والمرتبطة بالتاريخ يسمح له بالتعبير عن القيم الفردية والجماعية التي يؤمن بها الفرد والجماعة أو يتمنى حدوثها[٧٥]:

وقد لا حظنا عبر النماذج السابقة توافر عدد من القيم الدينية والأخلاقية والوطنية والاجتماعية تمثلت في رفض الانهزامية والانكسار وتمجيد التحدي والشجاعة والتضحية والبطولة وترسيخ حب الوطن والأرض وتعميق دائرة الانتماء في نفس الإنسان مما جعل الشعر في بعض الأحيان أقرب إلى وسيلة تربوية.

١- البعد النفسي

يستخدم الأدباء وغيرهم من المبدعين الصور الخاصة بالمكان من أجل إثارة أو تكوين حالات نفسية خاصة داخلنا، فالفن ــ كما يؤكد بعض الباحثين المعاصرين في سيكولوجية الإبداع ــ بطبيعته مكاني، لذلك يتطلب مكانا يمكن أن يصبح ساحة لتصوير الواقع، أو إعادة إنتاجه فنيا[٧٦]:

والمتأمل لبعض أشعار الانتفاضة التي تحدثت عن المكان يلمس مدى ارتباط ما أبدعه الشعراء بأحوالهم النفسية، وما تعكسه تلك الأحوال على مواقفهم ونظرتهم إلى الحياة مما يؤكد استجابة الشعر لأحاسيس المبدعين وحاجات الجماهير في نقل تجربتهم وتفاعل وجدانهم وحرصهم ورغبتهم بعودة أرضهم الضائعة، وكان محركا ومثيرا للنفوس والعقول للتأمل في صور المعاناة التي نتجت عن النكبات المتواصلة التي حلت بالأرض وشعبها.

وأكثر شعر انتفاضة الأقصى يتمحور بكثافة حول المأساة وبدا ذا طابع انفعالي حاد، يرتد للذات ليكشف عن مشاعر الكآبة والحزن والمرارة، ولعل من أبرز المواقف التي وجهت الشعراء من حيث الأحوال النفسية التي كشفت عنها أشعارهم القلق والتوتر والاضطراب، وهو ناتج عن شعور الإنسان بأنه يعيش في حالة صراع مستمر وأخطار متجددة تهدد وجوده وبقاءه، دفعه إلى التحدي والسعي إلى استرداد حقه ومواجهة مصيره مهما كانت النتائج.

والحق أن تعرض الإنسان والمكان للخطر أو الضياع يزيد من وعي الإنسان وإحساسه بالمكان وبأهميته، ويزداد هذا الإحساس إذا توالت المآسي والمصائب والنكبات. ولقد عانى الشاعر في فلسطين عنصر المكان متمثلا في سقوط هذا المكان أو تعرضه للاجتياح والتدمير، فهو يشعر بالمرارة مما يحدث للمدينة والقرية والمخيم والساحة والمسجد وغيرها من الأمكنة من اغتصاب وعدوان، ولما ترتب على ذلك من ضحايا كثيرة[٧٧]:

بقروا بطون الحاملات نكاية ... حصدوا الكهول عجائزا وخوادما
والطفل هل جاء الصغير جناية ... أبحضن أمه يعدمون كلاهما
ويح العذاري من يفرج كربها ... ويحول دون العار ليثا عارما
لهفى لبيت قد أبيد سراته ... أبكل بيت للسعير مضارما
. . . . . .
بلغ الصراخ صراخ أهلي مداهم ... يا ويح قومي كيف دوي راغما

لقد أرقت هذه الجرائم الشعراء وأرقت الإنسانية، فبعد أن فقد الإنسان وطنه وقف قلقا تنهشه الآلام، فقد تبدلت السعادة إلى شقاء، وتحولت الحياة إلى جحيم في غياب الوطن، فالمكان مرتبط لدى الشعراء بالزمان، كان الوطن في الماضي رمزا للأمن والاستقرار والسعادة، وأصبح اليوم يعني - بما تعرض له من جرائم - الخوف والقلق والضياع وافتقاد الارتياح الطمأنينة.

وقد نلحظ في مواقف بعض الشعراء قلقا ناتجا عن توتر نفسي يتعلق بالخوف على مصير الإنسان في أرضه المحتلة التي حاصرتها المحن وتجرعت كؤوس القهر والإذلال من عدو لا يعرف سوى القتل والانتقام(٧٨):

مالي أرى
هذي المحازن تقتل القلب السعيد
قل لي أخي
ماذا جرى؟
أنا لست أدري ما أقول
فالدمع حركه
من العينين آلاف الشجون
وأثاره
ما حل بالأطفال من أثر المنون
.....
ماذا أخي
حرب ضروس يا أخي
في هذه الدنيا يؤججها العدى
حرب ضروس
سوف تسقي أخوتي كأس الردى

فالشاعر يبدي هنا عواطف مختلطة، فيها تعبير عن موقف متشائم، تسوده روح اليأس والحزن والمرارة على واقع مؤلم يحل بأهله ومدنه وقراه، ولا يملك له ردا، ولا يشعر باطمئنان أو بأمل في تجاوز مخاطره، مما يبعث على القلق.

وتتكرر صيحات التحذير من المخاطر المتوقعة التي يمكن أن تحل بالقدس وبغيرها من المدن، ومن هذه الصيحات قول الشاعر الدكتور عدنان النحوي(٧٩):

القدس في خطر؟! مازال يذهلني حقا ويفزعني من أمرنا عجب

القدس يا أمتي ليســـت بمنعــزل عن الديار ولا الخطب الذي خطبــوا

وقد كثر ذكر القدس في شعر انتفاضة الأقصى، وهذا الإكثــار ليــس إلا إفصاحا عن التمسك بهذا المكان وقد يعكس شــعورا بــالقلق عليــه وعلــى مصيره.

وعلى النقيض من هذا الموقف يواجهنا شعور بالتفاؤل والأمل يغلب علــى كثير من القصائد التي تصدر عن نفوس تملكتـــها قــوة الإرادة والعزيمــة وظهرت عليها أمارات العزة والكرامة، حيث كانت انعكاسا لشخصية الإنسان الذي يحاول أن يتغلب على واقعه، كقول الشاعر عبد العزيز العزاز بصــورة خطابية ومباشرة محرضا على الجهاد وواثقا في النصر[٨٠]:

برايات الجـــهاد نخــوض صفــا وخيل الله تركــب فــي انتضــاح
ســندحرهم ونصليــهم عذابـــــا ونجعلــهم كمــذرور الريـــــاح
فــإني أبصـــر الأجيـــال ترنـــو لأيـــام تبســم عـــــن أقـــاحي
بأيـــام ستشـــرق عـــن شـــموس تميز لنا الخبيث مـــن الصحـــاح
رأيت النصر يـــا قومـــي قريبـــا وأرقبـــه بمنبلـــج الصبـــاح

والحق أن الاستبشار بالنصر القادم من خلال الجهاد هو مظهر من مظاهر رفض الهزيمة، ورفض الهزيمة هو لون من إظهار روح التفـــوق النفســي واثبات الذات، ويمثل غير قليل من شعر الانتفاضة، وبخاصة ما احتوى منــه على ذكر الأمكنة المحببة إلى النفس المرتبطة بالذكريـــات الجميلـــة تحقيقـــا للهوية الوطنية ودفاعا عنها وعن هوية التراب (الوطن) الذي يعد المرآة التي تعكس الذات الحقيقية للإنسان، وتلك الذكريات والحنين والشوق رحلة للبحث عن أقرب الأشياء إليه وأبعدها عنه في الوقت نفسه، إنها رحلة للبحث عـــن الذات وعن الوطن عن حلم الإنسان[٨١]:

في روابيها رتعنا
في مساجدها ركعنا
في بيادرها شقينا
وأكلنا وشربنا
في حواريها لعبنا
وبكينا وسعدنا
اسألوا الأرض
ستحكي كل شيء
سوف تبقى

الهوية والدليل

إن أماكن الذكريات التي ترعرع الشاعر فيها وتآلف معها، تظل راسخة في داخله محفورة في ذهنه، لأنه يرغب أن تبقى كذلك، من هذا المنطلق يمثل المكان مستودعا لهذه الذكريات، ويظل يوحي للإنسان بالفعل المبدع ويمده بالشحنات النفسية والوجدانية التي تعيد له توازنه النفسي في الظروف الصعبة التي تواجهه(٨٢).

يقول الشاعر محمود درويش(٨٣):

تحت عريشة فضفاضة، في ظل دوري
يوتر صورة المعنى، وفي هذا المكان
العاطفي/
سألتقي بنهايتي وبدايتي

إن امتلاك المكان والالتحام به هو بحث عن حقيقة وجود الإنسان، إنه ولادة جديدة، أو قل هو اكتمال لدورة الحياة بزمنها الدائري الذي يحمل البداية والنهاية معا، إنه مظهر من مظاهر التوازن الحقيقي في هذا الوجود. لذلك يقول الشاعر(٨٤):

قل لي: كيف كنت تعيش حلمك
في مكان ما، أقل لك من تكون

وهكذا يرتبط المكان بهوية الإنسان وشخصيته، فهو عامل من عوامل تحقيق ذاته، ومن خلال اتحاد المكان والذات تتشكل حالة الانتماء وهي حالة حضور دائم تسهم في تحقق الألفة وانتفاء القلق.

وتأكيدا لعمق الإحساس بالأرض والشعور تجاهها بالانتماء والارتباط تأتي صفة التوحد بين الأرض والإنسان، وهي صفة ملازمة لعدد من الشعراء وصلت إلى مرحلة من التلاحم التام.

يقول الشاعر(٨٥) :

فالأرض ــ كل الأرض ــ من جسدي
وفي جسدي تؤول

ويتوحد الفلسطيني بأرضه ويندمج معها، فهو جزء منها وهي جزء منه، تجري منه مجرى الدماء في العروق، وهي بمثابة الروح من الجسم، ويعبر عن هذا التوحد والامتزاج قول الشاعر(٨٦):

ففلسطين الأبية
لم تزل في جسمنا تجري
كما تجري الكرات الدموية

إنها الذرة والشحنة
والسالب والموجب في كل خلية

ومن الواضح أن الشاعرين في النموذجين السابقين ينطلقان مع أرض وطنهما في علاقة حميمة من التواصل والتلاحم، ولعل هذا التوحد بالأرض كان بغرض أن الشاعر يفر من الواقع المر الذي يعيشه ويكابده، أو أنه يحاول أن يعيد صياغة للوطن الذي افتقده على أرض الواقع[٨٧]:

٣- البعد الروحي

تحتل فلسطين مكانة مقدسة في القلوب لارتباطها بالعقيدة، فهي أرض النبوات ومهد الرسالات، ولأقصاها أسري بالرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها عرج به إلى السموات العلى، فالأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وهي التي باركها الله سبحانه وتعالى، ونص على بركة أرضها في كتابه العزيز "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير.[88] "

لقد شهدت أرض فلسطين نزول الوحي على كثير من الأنبياء كداود وسليمان وعيسى وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام، ومنهم من نشأ وترعرع في أرضها ومنهم من هاجر إلى تلك "الأرض المباركة" والأحاديث النبوية الشريفة التي تدلل على قدسية فلسطين كثيرة، روي الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: "يا نبي الله افتنا في بيت المقدس، فقال: أرض المحشر والمنشر"[٨٩]:

وقد استقر في ذهن الفلسطيني والعربي وكل مسلم من خلال عقيدته أن هذه البلاد من الله عز وجل عليها وحباها المكانة الروحية الدينية، مما جعلها مقدسة وأن الله سبحانه وتعالى باركها، وأنها ميدان الرسالة السماوية التي هي رسالة واحدة جاء بها جميع الأنبياء والرسل.

فالشاعر الدكتور عدنان النحوي ينظر إلى القدس كعنوان للقداسة لأنها ارتبطت بنور النبوات، والرسالات التي أشرقت على أرضها وتعطرت بإسراء النبي محمد عليه السلام وبالمعراج فهي أرض مباركة موصولة بالسماء في علاقة مقدسة طاهرة[٩٠]:

يا قدس يا نور النبوة أشرقت ... في الداجيات ويا صفاء المنهل
كل النبوات التي بعثت سعت ... شوقا إليك بنورها المتهلل
كم أشرقت في كل ساح آية ... لله تنبئ بالنبي الأكمل
فإليك أسري بالنبي محمد ... ليؤمهم يا للإمام الأعدل

ثم ارتقـــى لمعـــارج موصولـــة بلغت به أعلـــى رؤي أو مـــنزل
دار مباركـــة وأنفـــاس الـــــهدى فيها علـــى روض أغـــن مظلـــل
المسجد الأقصى بساحك يـــا لـــه من مسجد بهدى العصور مجلـــل
طاف الجمال بكل أرض وانتـــهى لرباك مجلوا فقيـــل هنـــا أنـــزل

والقدس كما يراها الشاعر الدكتور محمد البع، خير أرض الله[٩١]:

يا قدس يا خير أرض الله يا وطني أعطاك ربك كل الخـــير والنعـــم

وهي أم المدائن وأم الرسالات على مآذنها صحت كل العصور وفي هداهـــا التقت كل النبوات [٩٢]:

أم المدائن، يا أم الألـــى زرعـــوا في جبهة الدهر يوم الفتح رايـــاتي
على مآذنها كل العصور صحـــت وفي هداها التقت كـــل النبـــوات
رسالة لك يـــا أمـــي ويـــا أملـــي يا قدس يا قدس يا أم الرســـالات

لقد أكثر الشعراء في قصائدهم من ذكر القدس لما تحمله هذه المدينة مـــن مكانة في بؤرة الشعور العربي والإسلامي عامـــة، والفلســطيني خاصـــة، فالشاعر الدكتور عبد الرحمن بارود يربط بينها وبين مكة والمدينة ويعـــدل بينها في المكانة الدينية[٩٣]:

القدس مذ تبوأت عرش الجبال مسلمة
ربية، قدسية، صديقة مقدمه
للقدس وجه طيبة ومكة المكرمة

وفي المعنى نفسه يقول الشاعر[٩٤]:

أم القرى، طيبة القدس الشريف معـل تلك الينابيع منها النـــور ينســكب

وهذا الربط بين الأماكن المقدسة يعكس وحدة العقيدة الإسلامية، وهو مســتمد من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم "لا تشد الرحـــال إلا إلـــى ثـــلاث مساجد، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى"[٩٥].

وإذا كانت القدس تستمد قداستها من ارتباطها بعقيدة المسلمين، فـــإن لفلسطين كلها في نظر عدد من الشعراء الكثير من القدســـية، وحـــول هـــذه القدسية التي ينسبها بعضهم لبلاده (وطنه) يقول الشاعر[٩٦] :

وطني هو البيت الذي
أهفو إلى أركانه
وأظل أدعو أن يطيل الله في عمري
وألقاه بخير
كي أصلي ركعتين على ثراه

مسبحا ومكبرا
وكأنه "البيت العتيق"

تمثل أحداث انتفاضة الأقصى التي دارت في ربوع فلسطين وعلى امتداد أماكنها المختلفة مصدر حفز روحي، لأن الإنسان مسكون بالقبض على أرضه المقدسة، ورأب صدع الأرض الملتحمة بالجسد، فالأرض ليست مكان سكن، ولكنها جزء من الذات ورمز لشعب يواجه تحديات وتداعيات خطيرة، خاصة وأن تلك الأرض مرتبطة بالتاريخ ارتباطها بالعقيدة والدين(٩٧):

هي قطعة الأرض التي روي عصارتها
الوريد
هي قطعة التاريخ كم سجدت عليها
جبهة
ولكم تغنى من مآذنها نشيد

خصائص الصورة المكانية

سعى شعراء انتفاضة الأقصى ــ من خلال قصائدهم ــ إلى تقديم رؤية خاصة لواقعهم، رؤية تكتسب خصوصيتها من قدرتهم على إدراك الواقع بعلاقاته المتعددة والمتشابكة، والشاعر المبدع لا يكتفي بما يربط أشياء الواقع من روابط خارجية، بل يحاول النفاذ إلى كنهها، وتأمل تلك العلاقات الخفية الكامنة تحت السطح الخارجي، وقد يتجاوز ذلك إلى طرح علاقات جديدة مغايرة لما هو مألوف بين الأشياء، فهو بذلك ــ يعيد صياغة الواقع وإبداعه وتشكيله، وهو عن طريق الصور الشعرية يتمكن من تقديم صياغة جديدة للواقع(٩٨).

لقد أضفى شاعر الانتفاضة على صوره المكانية سمات معينة لعل أبرزها:

١. واقعية الصورة الشعرية المكانية:

تتميز أكثر صور شعر الانتفاضة بارتباطها بالواقع فهي مستمدة من أحداثه ومما يرتبط به، ولذلك نجد أن تلك الصورة ــ في أغلبها ــ تمحورت حول مراكز ثقل مكانية، كالمدينة والقرية والمخيم والبيت والشارع والمسجد وغيرها، مما له كبير ارتباط بالأحداث والوقائع، وهذا أمر متوقع "إذ لا خلق شعري وجمالي إلا من خلال الواقع، وهو في حركته المتطورة لا في سكونه ولا في حالات مقطوعة من مجرى التاريخ، إن امتلاك الشاعر لوعي ما بالمكان يعني أن يفعل فيه فعلا خلاقا"(٩٩).

ومع ارتباط المكان بالواقع فإن المكان تحكمه لغته التي ترسم ملامحه وتشكل هيئته، فجمالية المكان في الشعر فنية ذلك "أن للغة نظاما

دلاليا وجماليا أيضا، قادرا على استحضار كل الموصوفات والمذكورات في الذهن فيرتسم المكان وتتحدد معالمه وتتشكل جغرافيته الأدبية التي تتصف، وذلك على نقيض الجغرافيا المكانية، بانعدام الحدود أو بقدرتها على الأقل على الاتساع والامتداد"[١٠٠].

ومما يؤكد اهتمام شعراء الانتفاضة بالظاهرة المكانية شيوع الألفاظ الدالة على الانتفاضة وعلى أحداثها وتداعياتها في شعرهم، وهو ما لم تخل منه قصيدة واحدة مثل: جيش، احتلال، دم، أشلاء، جريح، أسير، يستغيث، يبكي، تفجر، يكسر، دموع، اجتياح، حريق، شهيد، أرملة، قتيل، مغتصب، عربد، بطولة، ملاحم، مزقوا، اعدموا، بقروا، عقروا، حرقوا، الزنازين، السجون، يطحن، الجلاد، الغاصب، الخراب، الفتح، قطع، حمم، قنابل، صاروخ، مدافع، دبابات، طائرات، جرافات، مذابح، مقابر، مستوطنة، أصفاد، شظايا، تستعر. ...

وقد تكرر ورود هذه المفردات وما يقاربها في المعنى، وتعد هذه المفردات من أكثر المفردات صلة بالمكان والأحداث التي وقعت في فترة الانتفاضة، وهذا يعكس ميل الشعراء للتعبير عن واقع قاس، فهذا الشاعر عبد الكريم العسولي يتحدث عن عملية فدائية موضحا آثارها في الأعداء حيث عاشوا حالة رعب وخوف وهلع، وتحول المكان إلى نار تحرقهم وتقض مضاجعهم[١٠١]:

قتلى وجرحى
كالجراد المنتشر
هلع وخوف وانهيار
والأرض نار تستعر
والناس تجري
وسط غيم
والشظايا كالمطر

ومن الواضح أن الشاعر حرص على تحقيق قدر من التفاعل بين المكان والحدث، بين الحدث والصورة، ليعكس نوعا من الحيوية والتكامل في تشكيل عناصر الصورة المكانية.

لقد فرضت أحداث مخيم جنين واقتحام جيش الاحتلال له بما ترتب عليه من مجازر، فرضت نفسها على الشعراء، إذ صوروا مشاهد متعددة من تلك المجازر في صور شعرية مؤثرة، ومن ذلك قول الشاعر الدكتور عدنان النحوي[١٠٢]:

تتساقط الجثث الندية والشذا مسك وريحان يموج وعنبر
وترى كأن الأرض أضحت روضة تتمو بها هذي الورود وتزهر
وشيت أرضك بالدماء كأنما تلقى اللآلىء من بنيك وتنثر

إن هذه الصور المكانية وما تحدثه في وجدان القارئ تكشف عن علاقة حقيقية بين الإنسان المكان، علاقة تفصح عن مدى توظيف الطاقة الفنية والإبداعية في إخراج مثل هذه الصور المكانية بعفوية وواقعية ذات دلالات وجدانية وجمالية.

وإذا كان من الشعراء من وفق في تشكيل صوره المكانية من خلال تقديم صياغة جديدة للواقع وليدة وعي وإدراك، فإن بعضهم وقع في تقديم صور لا تتعدى أن تكون تمثيلا مباشرا للوقائع والعلاقات الظاهرة والشكلية، مما أفقد صورهم سمات (الشعرية)، ولعل ما يمثل هذا الاتجاه قول الشاعر[١٠٣]:

عاد الرجال في المساء
مع زيتونهم
وناموا
لتذهب النساء في الصباح
للمعاصر
فيعتدي (في غفلة من أمرهم)
شارون
بكل ما احتوت مخازن السلاح
من قذارة
فيحرق البيوت والرجال والزيتون

وفي مثل هذه الشعر نجد الواقع ونفتقد الفن، نفتقد الجدل بين الواقع والحقيقة الفنية، لقد وقع الشاعر في قبضة الواقع، فخلا شعره من الدراما والصراع، وأصبح مجرد رؤية (طبيعية)، والنزعة الطبيعية لا تقيم فنا، فالطبيعية وصف خارجي، بينما الواقعية الحقة مشاركة من الداخل.

١. تشابكات المكان والزمان:

علاقة المكان بالزمان علاقة لا انفصام لها، فهما وجهان لحقيقة واحدة، يشكلان معا إطارا لوجود الإنسان، من خلالهما تقع تجاربه، وتتحدد علاقته بالعالم الخارجي ويكتسب خبراته[١٠٤]. والتشكيل الشعري "لا ينفصل فيه التشكيل الزماني عن التشكيل المكاني وإنما يندمج التشكيلان في عملية

واحدة، فإذا القصيدة بنية زمانية ومكانية في الوقت نفسه، وإن كانت في الحقيقة مجاوزة للزمان والمكان معا[١٠٥].

ولا شك أن الزمن في حالة من التغير المستمر، ولكن هذا التغير قد يأتي بما يتعارض مع ما يرغب الإنسان ويحب، فما كان من ماض جميل في عالم الواقع (عالم المكان)، سرعان ما يتبدل بواقع كئيب.

فالقدس عبر العصور كانت عنوانا للأمن والإشراق والعزة والبطولة والإيمان والنور والنصر والفتح المبين والخير والسلام والبهجة والأمل، ولكنها اليوم أسيرة مكبلة بالقهر والظلم والعدوان[١٠٦]:

يا قدس! يا نجوى الزمان ولهفة ال ... أفق المطل على رباك فأجملي
يا قدس! يا عطر الدهور ونفحة ... ماجت على الأمل الغني المرفل
يا قدس! يا عبق الفتوح ونسمة ... سارت بريا المسك فوح قرنفل
. . . . . .
أرض الملاحم حدثني عن أمة ... تركتك في أسر شديد مثقل

ويحرص الشاعر على أن يربط بين الماضي والحاضر، ليؤكد المفارقة بين واقعين: واقع قريب ولكنه سابق، لا يشهد توهجا وثورة على الظالمين الذي انتهكوا حرمة المكان المقدس. وواقع يمثل الحاضر الذي اكتنز بالثورة وممارسة المقاومة والجهاد وتحدي الغاصبين، ويظهر ذلك من حديث الشاعر عبد الله السميح عن القدس بأرضها وشوارعها في قوله[١٠٧]:

شوارع هرمت من طول ما رقدت ... على الخديعة والتهريج والكذب
كان الغبار يغني في جوانبها ... لكنها الآن أنهار من اللهب
تجلت الأرض ذات الطهر فامتشقت ... سيف الجهاد بإيمان وعزم نبي
تشربت بدم الأحرار فانبجست ... بالنار في وجه أفاق ومغتصب

إن التغير الذي حدث في الواقع، والتحول الذي حدث في المواقف تجاه المكان (المدينة) جعل الشاعر يشعر بالزمن "ولن نشعر بالزمن إذا لم نشعر بالتغيير"[١٠٨] ، وقد أدى هذا الإحساس بالزمن دورا بارزا في رسم معالم المكان في كل حالة من حالات التغير الزماني، وهو ما يؤكد أيضا تشابك المكان والزمان في بناء الصورة الشعرية المكانية.

ومن الصور الشعرية التي أدت دورها التشكيلي من خلال ارتباط المكان بالزمان ومزج الحاضر بالماضي قول الشاعر متسائلا عما تبقى من بلاد الأنبياء (فلسطين)[١٠٩]:

ماذا تبقى من بلاد الأنبياء

لا شيء غير النجمة السوداء
ترتع في السماء
لاشيء غير مواكب القتلى
وأنات النساء
لا شيء غير سيوف داحس التي
غرست سهام الموت في الغبراء
ما زالت تحاصر كربلاء

ومن الواضح أن الشاعر يلجأ في تشكيل صورته إلى الموروث التاريخي، ليعطي صورته دوال جديدة، وأبعادا أعمق حين يربط صورة واقع بلاد الأنبياء بما كان من صورة الحرب الطاحنة بين داحس والغبراء في تشكيل تصويري يمزج الحاضر بالماضي ليظهر مدى التمزق العربي، في الوقت الذي يهيمن فيه عدوهم على أرضهم وسمائهم وليكتنز ذهن المتلقي بكثرة الضحايا في الصورتين الزمنيتين، وتكتمل الصورة قتامة عندما يعود الشاعر إلى أحداث كربلاء حيث دماء آل البيت رضي الله عنهم وهي تحاصر كربلاء في مشهد تصويري يعيد للذهن مشهد التخلي عن آل البيت وتركهم نهبا للقتل والذبح كما هم أهل فلسطين اليوم(١١٠).

وقد أكثر شعراء انتفاضة الأقصى من الإحالة إلي تاريخ المكان، وإذا كان بعضهم قد وفق في ذلك كما لاحظنا في النص السابق، فإن بعضا منهم لم يحالفه التوفيق. ولنتأمل قول الشاعر(١١١):

في القدس معركة البقاء نخوضها ... وبها نعود إلى اليقين وجودا
غدروا اليسوع بفتنة أودت به ... يحيى الذبيح وخالفوا داوودا
وتآمروا حين اصطفاه بملكه ... طالوت ضاق بخصمه جالودا

لقد ربط الشاعر المكان بالتاريخ، ولكنه لم يوظف ذلك التراث الديني التاريخي توظيفا فنيا، لأن التراث جاء كاسقاطات مكشوفة بعيدة عن الإيحاء، وهذا أضعف البناء الشعري.

١. **التلوين المكاني**

يعد التلوين المكاني ونقصد به التنويع المكاني من أبرز سمات الصورة المكانية في شعر الانتفاضة، لقد تعددت الأمكنة في ذلك الشعر تبعا للأحداث والمواقف وجاء هذا التعدد في أكثر من صورة، فهو يظهر أحيانا في حرص بعض الشعراء على ذكر أماكن ذات خاصية متقاربة أو نوع متشابه كالمدن مثلا، ويجمعها في سياق واحد رغم اختلافها في دلالتها الدينية أو الاقتصادية، فمدينة مثل القدس لها دلالاتها ذات البعد الروحي، ومدينة مثل

عكا أو حيفا لهما دلالات ذات أبعاد تاريخية واقتصادية كميناءين فلسطينيين على شاطيء البحر.

يقول الشاعر عبد الرحمن فرحانه[١١٢]:

آه يا مسرى المختار
تجري حطين إليك
ومدائن بيت المقدس تبتدئ المشوار
المخرز يكبر في حيفا
في أم الفحم
في غزة . . في الضفة
في الأغوار

ويقول الشاعر الدكتور عبد العزيز الرنتيسي[١١٣]:

عودوا إلى يبنا إلـــي يافـا إلـــى بيسان ترقب من يزف لها البشائر
للمجدل المحزون يسكب في الدجى عبراته الحرى على أطلال "عاقر"

وإذا كان حرص الشعراء على ترديد أسماء أكثر من مكان فـــي النـص الواحد قد يعني تعلقهم بتلك الأماكن وشعورهم بالألفة تجاهها، وأنها قريبـة من نفوسهم ومحببة إليهم، فإن ذلك لم يسمح بتوفير امتدادات مكانية يستطيع أن يفضي الشاعر من خلالها بدلالات أكبر ومعاني أوسع من شأنها أن تعمق من الفكرة، وتسهم في تشكيل الصورة المكانية بعناصرها المتكاملـة التـي تضفي عليها حيوية وحركة.

وقد امتد التنويع أو التلوين المكاني عند بعض شعراء الانتفاضـة إلـى صور مختلفة من الأمكنة لا يجمعها رابط سوى أنها مسرح لأحداث و حـدة تمثل بعضها في اجتياح جنين ومخيمها كما في قول الشاعر[١١٤]:

عظم الحصار على المدينة والمخيـ م والمنازل والنفـوس وأسـاروا
ومضى الشباب الصامدون لمعسرك دام عزائمهم أشـد وأخطـر
شـهد المخيـم جولـة لا تنمحـي أبـدا وذكراهـا تـهز وتبـهر
بين الأزقة، في الدروب بكل منـ عطف بطـولات هنـاك تسطر

وانطلاقا من طبيعة المكان الذي يشهد أحداثا متقلبة وطبيعة الإنسان الـذي لم يعرف الاستقرار والشعور بالأمن والأمان، تنوعت الأمكنة، وهذا التنويع أو التلوين قد يسهم في تصوير المكان في حالة نابضة بالحركة تولد في نفس المتلقي مشاعر الألفة والانتماء[١١٥] ، كما أنها قد تعكس رغبة الشـاعر فـي التدليل على تعدد المصاعب والأحوال السيئة أو الصعبة التي يعيشها المكـان

أو الإنسان، أي إظهار فعل المعاناة والمأساة التي حلت بالمكان وفعل الأعداء، أعداء الحياة، بهذا المكان وبسكانه.

١. أنسنة المكان

ارتبط شعراء انتفاضة الأقصى بأرض فلسطين ارتباطا روحيا ونفسيا وفرضت أحداث الانتفاض بما حفلت به من مآس وأحزان من جانب وما ولدته في النفوس من شعور بالعزة والكرامة من جانب آخر على الشعراء معايشة وقائعها وتداعياتها في كل أحوالها، ولعل هذا جعل العديد من هؤلاء الشعراء أقرب إلى الأمكنة بقلوبهم وأحاسيسهم مما شجعهم على رسم صورهم المكانية بأسلوب فني يقوم على التشخيص والتجسيد ويبث الروح والحياة في تلك الأمكنة التي ذكروها، فالمكان عندهم إنسان يشتكي، يفضح النفاق، يئن، يؤسر، يصرخ، يبكي، ينتحب، ينوح، يصيح، يتوجع، يلفظ الرجس، يأبى، يستباح، ينادي، يغتصب، يعبر، ينام، يشرق، يزهو، يضيء.

فها هو الشاعر يجعل القدس تحت وطأة الاحتلال حزينة يملؤها الضجر يظهر ذلك في مقلتيها وأهداب عينيها فيقول(١١٦):

هذه القدس
أما تبصر آثار السنين
أو ما تبصر في مقلتها خارطة الحزن
الدفين؟
أو ما تبصر جور الغاصبين؟
هذه القدس التي يطفح من أهداب عينيها
الضجر

وحتى الصخرة المشرفة في رحاب الأقصى جعلها الشاعر روحا تتألم وقلبها يتحطم يسيطر عليها الذهول، ثغرها مقتول السؤال(١١٧) :

هذه الصخرة روح تتألم
قلبها من شدة الهول تحطم
لم تزل تلمح ما يجري
ما البغي المنظم
ثغرها ما زال مقتول السؤال
أين أنتم يا أباة الضيم
يا أهل النضال

يقول الشاعر مناجيا فلسطين مخاطبها كأم رءوم تعاني الكثير من الهوان والإذلال من الصهاينة الغاصبين(١١٨):

فلسطين أمي
تنوح بصوت حزين
تنادي أباة الرجال
لقد قيدوني
وشدوا بصدري الحبال
وفي ساحتي سامري
يجوس خلال الديار

ويقول الشاعر محمود درويش متحدثا عن بلاده فلسطين مستخدما التشخيص لتشكيل صورة مؤثرة ومعبرة عن حالة الجرح والنزف والليل الدموي الذي تشع منه ملامح النور والأمل والعطاء والضياء(١١٩):

لبلادنا/ وهي المطوقة الممزقة التلال
كمائن الماضي الجديد
لبلادنا، وهي السبية
حرية الموت اشتياقا واحتراقا
وبلادنا في ليلها الدموي
جوهرة تشع على البعيد على البعيد

والأمثلة التي تعامل فيها الشعراء مع المكان ــ مستعينين بالتشخيص والتركيز على أنسنة المكان ــ كثيرة كثرة لافتة، بحيث لا تكاد تخلو قصيدة من قصائد شعر الانتفاضة من هذا الأسلوب، وهذا يعكس حرص عدد من الشعراء على تصوير المكان تصويرا مؤثرا ينبض بالحياة ويتسم بقدر من الحيوية والحركة، ويتناسب مع مكانة ذلك المكان (الوطن) في الوجدان.

خاتمة

أولى شعراء انتفاضة الأقصى المكان اهتماما كبيرا نظرا لارتباط المكان بأحداث الانتفاضة وفعالياتها، ونظرا لما يمثله المكان من أهمية في وجدان الشعراء، لأنه يمثل لهم الهوية وعنوان الكرامة والعزة والبقاء، لذلك لا غرابة أن يكون للمكان حضور واضح في شعرهم وأن يكون للانتفاضة تأثير بارز على الشعر في مضمونه ولغته وأساليبه. ويمكننا تلخيص أهم نتائج البحث في النقاط الآتية:

١- تنوعت صور المكان لدى الشعراء، وقد تم حصرها في صور رئيسة تتمثل في المدينة والقرية والمخيم، وهي صور تحمل دلالات إيجابية في أغلبها، كما تم حصرها في صور فرعية تمثلت في البيت والمسجد والشارع والساحة والسجن، ويغلب على هذه الصور الدلالة السلبية، لأنها أمكنة كانت بؤرة للصراع ومسرحا للصدامات.

٢- كان شعراء الانتفاضة متواصلين ببيئتهم ومجتمعهم متأثرين بما شهده واقعهم وما حفل به من وقائع وأحداث.

٣- كشف البحث عن أبعاد متعددة للمكان منها الاجتماعي الذي يعكس كثيرا من القيم الدينية والأخلاقية والوطنية، ومنها البعد النفسي الذي يعكس سمات القلق والاضطراب أو سمات الأمل والتفاؤل، ومنها البعد الروحي الذي يرتبط بالعقيدة والدين.

٤- تتميز أكثر صور شعر الانتفاضة بارتباطها بالواقع فهي مستمدة منه وتشيع فيها الألفاظ الدالة على الانتفاضة بأحداثها وتداعياتها.

٥- التشكيل الشعري لم ينفصل فيه التشكيل المكاني عن التشكيل الزماني وأدى الإحساس بالمكان والزمان لدى الشعراء دورا بارزا في رسم معالم المكان.

٦- حرص الشعراء على تصوير المكان تصويرا مؤثرا ينبض بالحياة ويتسم بقدر من الحيوية والحركة من خلال التشخيص (أنسنة المكان).

٧- يعد التلوين المكاني من أبرز سمات الصورة الشعرية المكانية فقد تعددت الأمكنة في شعر الانتفاضة تعددا عكس تعلق الشعراء بتلك الأمكنة وحرصهم على إظهار فعل المعاناة والمأساة التي حلت بالمكان والإنسان.

هوامش البحث ومصادره ومراجعه

(١) مطاوع، بسام، ٢٠٠٠. دلالة الحجر في شعر الانتفاضة الفلسطينية رسالة ماجستير، برنامج الدراسات العليا المشترك جامعة عين شمس وجامعة الأقصى ص ٢، ٣.

(٢) الحلاق، حسان، ١٩٩٠، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، دار الهدى، بيروت، لبنان، ص ١٢٣.

(٣) بنفينستي، ميرون، ١٩٨٧، الضفة الغربية وقطاع غزة (بيانات وحقائق أساسية) ترجمة ياسين جابر، ط ١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص ٧، ٨.

(٤) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني ٢٠٠٤، التقرير الإحصائي السنوي عن المستعمرات الإسرائيلية ص ٣٠ ــ ٣٩.

(٥) أبو شنب، حسين، ١٩٩٠، الانتفاضة ثورة الأرض والشعب، ص ١٦.

(٦) حسن، أيهاب، ٢٠٠٣، انتفاضة الحجر والسلاح، جريدة العربي، جريدة الحزب العربي الديمقراطي الناصري، القاهرة، مصر.

(٧) أبو شنب، حسين، ١٩٩٠، الانتفاضة ثورة الأرض والشعب، ص ٤٤.

(٨) ابن منظور، ١٩٨١، لسان العرب، مادة (كون) دار المعارف، مصر.

(٩) مصطفى، إبراهيم، وآخرون، ١٩٧٣، المعجم الوسيط، ج ٢، مادة (كون.(

(١٠) مدكور، إبراهيم، ١٩٨٣، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ص ١٩١.

(١١) باشلار، غاستون، ١٩٨٠، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، الطراق، ص ١٧٩.

(١٢) عثمان، اعتدال، ١٩٨٨، إضاءة النص، دار الحداثة، بيروت، لبنان ص ٥.

(١٣) عبد الحميد، شاكر، ١٩٩٨، الحلم والرمز والأسطورة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢٨٩، نقلا عنPersonal Identity and the imagery of : Place.

(١٤) إسماعيل، عز الدين، ١٩٨٤، التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، ط ٤، ٢ ٥٩.

(١٥) النصير، ياسين، ١٩٨٦، الرواية والمكان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ص ١٦، ١٧.

(١٦) النصير، ياسين، ١٩٨٦، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ص ٨.

(١٧) مرتاض، عبد الملك، ١٩٩٨، في نظرية الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ص ٥٧.

(١٨) أبو غالي، مختار، ١٩٩٥، المدينة في الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ٧٥.

(١٩) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، مختارات من شعر انتفاضة الأقصى، ص ١٨٨.
(٢٠) السابق، ص ٢١٥.
(٢١) السابق، ص ٥٠.
(٢٢) السابق، ص ١٣٣.
(٢٣) السابق، ص ٨٣.
(٢٤) درويش، جهاد، ٢٠٠٤، ديوان أقمار الخيمة. ص ٦٨.
(٢٥) السابق، ص ١٧٣.
(٢٦) السابق، ص ١٤٧.
(٢٧) السابق، ٢٦٧.
(٢٨) السابق، ص ١٧٦.
(٢٩) السابق، ص ٢٠٠.
(٣٠) السابق، ص ١٧١.
(٣١) السابق، ص ٢٠٠.
(٣٢) السابق، ٨٣.
(٣٣) السابق، ص ٢٨٣.
(٣٤) انظر السابق، ص ٨٣، ٢٠٤، ٢٥٩، ٤٢.
(٣٥) السابق، ٨٣.
(٣٦) السابق، ص ٩٦
(٣٧) السابق، ص ٧٥.
(٣٨) باشلار، غاستون، ١٩٨٧: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط ٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص ٣٦، ٣٨.
(٣٩) السعدني، أحمد، ١٩٩٧: ميتافيزيقا المكان في القصة العربية، أعمال المؤتمر الدولي للنقد الأدبي، القاهرة، ص ٣٦.
(٤٠) درويش، جهاد ٢٠٠٤، ديوان "أقمار الخيمة"، ص ٩٧.
(٤١) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، مختارات من شعر انتفاضة الأقصى المباركة، ط ٢، ج ١، المركز الدولي للنشر، غزة فلسطين، ص ٢٤٢.
(٤٢) السابق، ص ٧٦.
(٤٣) السابق، ص ٢٩١.
(٤٤) السابق، ص ١٦٣.
(٤٥) الشرباتي، سميرة، ٢٠٠٤: نجمان والحمام، جريدة الحياة الجديدة، ٢٠٠٤/٥/٢٧، فلسطين، ص ١١.
(٤٦) السابق، ص ١١.
(٤٧) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، المختارات، ص ٥٤.
(٤٨) السابق، ص ٢٤٧.
(٤٩) السابق، ص ٨٨.

(٥٠) السابق، ص ٢٤٨.
(٥١) السابق، ص ٢٥٠.
(٥٢) السابق، ٢٥٢.
(٥٣) السابق، ص ٢٤٤.
(٥٤) السابق، ص ٧٨.
(٥٥) السابق، ٢٧٥.
(٥٦) السابق، ص ٢٨٦.
(٥٧) السابق، ص ١٧٧.
(٥٨) السابق، ٣٠١.
(٥٩) السابق، ص ٣٥٠.
(٦٠) السابق، ص ٣٢٥.
(٦١) السابق، ص ٤٤.
(٦٢) السابق، ص ٤٤.
(٦٣) السابق، ص ٤٦.
(٦٤) المغيض، تركي، ١٩٨٩، جماليات المكان في شعر عرار، مجلة مؤته، مجلد ٤، عدد ٢، ص ١٩٠.
(٦٥) عبد الحافظ، صلاح، ١٩٨٣، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، دار المعارف، مصر، نقلا عن Influences Of Geographic Environment
(٦٦) النصير، ياسين، ١٩٨٦، إشكالية المكان في النص الأدبي، ص ٢٧.
(٦٧) الكحلوت يوسف، ٢٠٠٤م، مختارات من شعر انتفاضة الأقصى، ص ١٤٨.
(٦٨) باشلار، حاستون، ١٩٨٠، جماليات المكان، ص ٤٥.
(٦٩) درويش، محمود، ٢٠٠٤، لا تعتذر عما فعلت، وزارة الثقافة فلسطين، ص ٩.
(٧٠) السابق، ص ١٣.
(٧١) الكحلوت يوسف، ٢٠٠٤، مختارات من شعر انتفاضة الأقصى، ص ٣٠١.
(٧٢) السابق، ص ٣٥٠.
(٧٣) السابق، ص ٣٥١.
(٧٤) السابق، ص ٢٥٩.
(٧٥) عبد الحميد، شاكر، ١٩٩٨، الحلم والرمز والأسطورة، ص ٣٠١.
(٧٦) السابق، ص ٢٨٩.
(٧٧) درويش، جهاد، ٢٠٠٤، أقمار الخيمة، ص ٦٧.
(٧٨) السابق، ص ٣٧١، ٣٧٢.
(٧٩) السابق، ص ٢٨٧.
(٨٠) السابق، ص ٢٣٨.
(٨١) السابق، ص ٢٥٨.

(٨٢) المغيض، تركي، ١٩٨٩، جماليات المكان في شعر عرار، مجلة جامعة مؤته، ص ١٩٧.
(٨٣) درويش، محمود، ٢٠٠٤، لا تعتذر عما فعلت، ص ٩.
(٨٤) السابق، ص ١٧.
(٨٥) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، مختارات من شعر الانتفاضة، ص ٣٥٢.
(٨٦) السابق، ص ١٠٦.
(٨٧) أبو حميدة، محمد صلاح، ٢٠٠٠، الخطاب الشعري عند محمود درويش، مطبعة المقداد، غزة، فلسطين، ص ٧٩.
(٨٨) الإسراء آية ١.
(٨٩) ابن حنبل، أحمد، (د. ت)، مسند الإمام أحمد، دار صادر، بيروت، ٢٥٧/١.
(٩٠) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، مختارات من شعر الانتفاضة، ص ٢٩٠.
(٩١) السابق، ص ٣٢٨.
(٩٢) السابق، ص ١٢٥.
(٩٣) السابق، ص ١٨٨.
(٩٤) السابق، ص ١٩٥.
(٩٥) ابن حنبل، أحمد، د.ت، مسند الإمام أحمد، ٢٣٤/٣.
(٩٦) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، مختارات من شعر الانتفاضة، ص ١٠٥.
(٩٧) المنابق، ص ٣٥٤.
(٩٨) الطوانسي، شكري، ١٩٩٨، مستويات البناء الشعري عند محمد إبراهيم أبو سنة، ص ٣٦٥.
(٩٩) النصير، ياسين، ١٩٨٦، إشكالية المكان في النص الأدبي، ص ٣٩٦.
(١٠٠) مرتاض، عبد الملك، ١٩٩٨، نظرية الرواية، ص ١٥٨.
(١٠١) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، المختارات، ص ٢٦٨.
(١٠٢) السابق، ص ٢٩٠.
(١٠٣) السابق، ص ١٧٢.
(١٠٤) الطوانسي، شكري، ١٩٨٨، مستويات البناء الشعري، ص ٥٢٤.
(١٠٥) إسماعيل، عز الدين، ١٩٨٤، التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، ص ٥٠.
(١٠٦) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، المختارات، ص ٢٩٠.
(١٠٧) السابق، ص ٢٧٧.
(١٠٨) بدوي، عبد الرحمن، ١٩٨٠، الزمان الوجودي، دار الثقافة، بيروت، ص ٨٥.
(١٠٩) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، المختارات، ص ٣٠٥.
(١١٠) السابق، القسم الأول (الدراسة الفنية)، ص ٣٠.
(١١١) السابق، ص ٣١٩.
(١١٢) السابق، ص ٢٢٢.

(١١٣) السابق، ص ٢٣٠.
(١١٤) السابق، ص ٢٨٩.
(١١٥) انظر: المغيض، تركي ١٩٨٩، جماليات المكان في شعر عرار، مجلـــة مؤتـــه، ص ٢٢٢.
(١١٦) الكحلوت، يوسف، ٢٠٠٤، المختارات، ص ٢٠٧.
(١١٧) السابق، ص ٢٠٨.
(١١٨) السابق، ص ٣٥٠.
(١١٩) درويش، محمود، ٢٠٠٤، لا تعتذر عما فعلت، ص ١١.